ثروت أباظة

هارب من الأيام

الفائزة بجائزة الدولة سنة ١٩٥٨ — ١٩٥٩

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي - الفجالة

الإهداء

إلى أبي إبراهيم دسوقي أباظة باشا

أبي

أحسبني يدي تقوى على أن ترفع هذا الكتاب إلى أعتابك. فعند أعتابك أضعه وحسبه من مكان.

ثروت

هـــارب مـــن الأيـــام

بقلم عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين

أعترف بأن عنوان هذه القصة وقع من نفسى موقع الغرابة فليس الهرب من الأيام شيئا يتاح للأحياء مهما يفعلوا إلا أن يفرضوا على أنفسهم الموت أو يفرضوا عليها الفعلة المطلقة لمطبقة ..

فالإنسان الحى أسير الزمن يدخل فيه منذ تشـــيع الحياة ولا يخرج منه إلا حين تنقطع الأسباب بينه وبين الحياة أو حين تضطر نفسه إلى الذهول الشامل الذى يصرفه عن كل شىء ويقطع الصلة أو يخيل إلى صاحبه أنه يقطع الصلة بينه وبين الزمان والمكان وما يتعاقب فيهما من الأحداث وما يلم بالأحياء والأشياء بينهما من الخطوب .

وأنى أقدر الهارب من الأيام فى هذه القصة هو هذا العمدة الذى جعله الكاتب محورا تدور الأحداث حوله والذى انتهى فى آخر القصة إلى أن يترك منصبه ويهجر القرية التى كان يدبر أمرها تدبيرا متصلا أو موقوتا . ولكن هذا العمدة لم يهرب من الأيام وإنما هرب من منصبه وهرب من القرية التى لم يحسن القيام عليها .. ورحم الله أبا العلاء الذى انبأنا بألا مهرب

من الزمان الكائن الحى ما دام حيا وذلك فى بيته الرائع الخالد :

ولو طار جبريل بقيـــة عمره

من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

وأكبر الظن أن هذا العنوان إنما راق المؤلف لأن فيه شيئا من الغرابة والغموض يروعانه هو أولا ويروعان كثـــيرا من قرائه بعد ذلك وإن كان شيء منهما لم يرعني . ولو أنى أطعت العنوان لانصرفت عن قراءة القصة ولحرمت نفسى متعة قيمة حقا فقد أتيح « للأستاذ ثروت أباظة » حظ حســـن جدا من الإجادة مكنه من أن يفرض عليك المضى فى القصة إذا بدأتها حتى تبلغ غايتها بل مكنه من أن يفرض علىّ أنا قراءتها مرتين لم أباعد بينهما فى الزمان لأنى وجدت فيها روحا عذبا يجرى فى ألفاظها وأسلوبها وترتيب الأحداث فيها واستخراج بعض هذه الأحداث من بعض فى غير تكلف ولا تصنع ودون أن يعنف القارىء أو يثير أمامه ضروبا من المشكلات التى تقفه عن القراءة هنا أو هناك

وإنما القارىء يمضى فى قراءته مضيا يسيرا يوحى إليه بأن الكاتب نفسه قد مضى فى كتابة قصته مضيا يسير أيضا لم يجد فيها شيئا من عناء أو هو قد أوجد العناء كل العناء . ولكنه استأثر به ولم يظهر القارىء على شيء منه شأن الكاتب المطبوع الذى يجد ويكد ويشقى بالجد والكد فيما بينـــه وبين نفســـه ليقدم إلى قارئه آخر الأمر أثرا أدبيا ينعم بقراءته ودون أن يحس فى هذا النعيم جدا أو كدا أو شقاء .

وما أظن الواقعيين بين كتابنا من الشباب يرضون عن هذه القصة كل الرضى فهى لا تصور الواقع كما يصورونه وكما يحبون أن يصوره غيرهم من الذين يعرضون لكتابة القصة خاصة أو للإنشاء الأدبى بوجه عام .

فهى تعرض عليك قرية هادئة مطمئنة ينعم أغنياؤها بالعيش ويشقى فقراؤها بالعيش أيضا ولكنهم قد تعودوا شقاءهم وألفوه فهم لا يشكون منه ولا يظهرون الضيق به قد عرفوا أن من طبيعة الحياة فى قريتهم أن ينعم الأغنياء ويبتئس الفقراء وهم لا يريدون ولا يستطيعون أن ينكروا طبيعة الأشياء ولا أن يضيقوا بما قسم الله بينهم من الحظ .

واسم القرية نفسه يوحى بهذا فهى قرية السلام .

وأنت ترى أول ما ترى عمدة القرية وقد أفاق من نومه آخر الليل وأول النهار وهو عجل يحرص على شيئين أشد الحرص أولهما أن يصلى صلاة الفجر قبل أن يفوته وقتها وهو من أجل ذلك يتعجل الخادم لتحضر له وضوءه قبل أن تفوته الصلاة وقد ازدحمت فى نفسه أمور الدين وأمور الدنيا ما أباح الله منها وما حرم يرى هذا كله طبيعيا لا غرابة فيه فهو يجرى أثناء الوضوء لسانه بهذه الأدعية التى يرددها المسلمون حين يتوضأون ولكنه يقطع هذه الأدعية بين حين وحين بالسؤال عن زوجه ومن ابنته وعن صالح هذا البائس الذى وعده برشوة من الدجاج لأنه أصلح الأمر بينه وبين زوجه التى كانت مغاضبة له .

أما الأمر الثانى الذى يحرص عليه أشد الحرص فهو إرضاء حاجته إلى الافطار وهو يسأل عما سيقدم إليه إذا أتم صلاته من

الألوان والخادم تنبئه بذلك فى شىء من التفصيل كأنها تريد أن تثير نهمه وكأنها تستحضر ما سيصيبها من الطعام إذا فرغ العمدة من إفطاره .

ويستقبل طعامه تحمله إليه ابنته درية ذات الجمال الرائع والحسن البارع والرجل فرح بطعامه مبهور بجمال ابنته لا يخفى حرصه على أن يجد لهذه الفتاة النضرة زوجا غنيا موفورا ولكن صوتا يرتفع بالدعاء من وراء النافذة هو صوت كمال هذا البائس الذى يتكفف الناس ويصيب طعامه إذا أصبح كل يوم فى بيت العمدة وهو البطل الأول من أبطال هذه القصة تتكشف عنه الأحداث فجأة فهو ذليل يدعو للناس جميعا بالثراء والسعادة وطول العمر ليظفر منهم بالعطاء القليل حينا وبالزجر والانتهار أحيانا وبالسخرية والازدراء دائما وهو حاقد أشد الحقد على هؤلاء الأغنياء الذين يعيشون فى السعة وينعمون بطيبات الحياة على حين لا يجد هو ما يقيم أوده إلا بالجهد والمشقة وابتذال ماء الوجه والإلحاح فى مسألة الكرام والبخلاء .

وهو يطوف بالقرية منذ يصبح إلى أن يمسى لا عمل له إلا أن يستجدى من جهة وينبىء أهل القرية بما يجرى فيها من أحداث الخير والشر ومن شئون الموت والزواج خاصة . وهو لا يصيب صدقة من أحد إلا استنزل عليه الخير بلسانه وتمنى بقلبه أن تغوله الغوائل وأن تصب عليه الخطوب . وهو يشعر بأنه على حظ من القوة فى جسمه ومن الذكاء فى عقله وبأنه أجدر بالغنى والسعة من هؤلاء الأغنياء الذين يتكففهم والذين يستأثرون من دونه بالنعيم .

كذلك يقضي نهاره فإذا جنه الليل مضى إلى جماعة من الرفاق يجتمعون عند أحدهم على الحشيش فجلس بينهم خادما يتملقهم ويأخذ بحظه مما هم فيه . وهو لا يقبل كل صباح على بيت العمدة ليفطر فحسب بل ليستمتع كذلك من فتاة البيت بنظرة يرفعها إليها ونظرة أخرى تلقيها الفتاة إليه . فهو لهذه الفتاة محب وهو بها كلف مشغوف ولكنه يائس وأين هو منها وأين هى منه . إنما مكانه منها مكانه من الشمس لا يستطيع أن يرقى إليها ولا تستطيع الشمس أن تنزل إليه .

وكما صور الكاتب هذا الشخص الأول من أشخاص القصة تصويرا دقيقا كل الدقة ، رائعا كل الروعة فهو قد صور سائر أشخاص القصة على هذا النحو من الدقة والتحقيق . فهذا العمدة الذى يأمر فى بيته ويأمر فى قريته وينهى أيضا يهابه الناس جميعا ويشعر هو بهيبتهم له وإشفاقهم منه . هذا العمدة نفسه خائف وجل من المأمور يرهبه ويتملقه ويتقى شره ويبتغى رضاه أكثر مما يعمل معه أهل القرية .

وهو يقبل الرشوة من الناس ويغريهم بتقديمها إليه ولكنه هو أيضا يرشو المأمور ويحس إغراء المأمور له بالرشوة . فهو يأخذ من دونه ويعطى من فوقه وهو بذلك راض وإليه مطمئن وهو يدبر أمور القرية على هذا النحو من الإخاء والعطاء يخيف ويخاف ويأخذ الرشوة ويعطيها . وكل ما يعرض عليك الكاتب من صور للأشخاص والأشياء دقيق متقن على هذا النحو .

فالقصة من هذه الناحية لا تعرض عليك إلا صورا واقعة

يعرفها كل من عرف القرى فى بلادنا ولا سيما فى بعض الأوقات وفى بعض الظروف .

ولكن القصة لا تلبث أن ترقى عن الواقع شيئا . فهـذا البائس المتكفف الذى أذله البؤس وأكل قلبه الحقد لا يتمنى شيئا كما يتمنى أن يصبح غنيا موفورا ورث حياته البائسة هذه عن أبيه وورثها أبوه عن جده ولكنه يطمح فى أن يكون خيرا من أبيه وجده وهو لا يجد الوسائل إلى الغنى إلا أن يصبح فاتكا يقتل ويسرق ويروع الأهلين ، وهو لا يسأل الله إلا شيئا واحدا وهو أن يتيح له أداة من أدوات الفتك .

وهو يلتمس الوسيلة إلى هذه الأداة فلا يجدها حتى يظفر بها ذات ليلة فى مجلسه ذاك مع رفاقه أولئك على الحشيش فبين هؤلاء الرفاق فاتك معروف وهو منصور الدفراوى الذى قتل فاتكا مثله منذ أيام بأمر من كبير يعيش فى قرية مجاورة . ورفاقه يسألونه فى ليلتهم تلك كيف قتل صاحبه وكيف أفلت من النيابة وكيف أخفى سلاحه ويعرفونه منه بعد إلحاح فى السؤال أنه أخفى السلاح فى قبر أخته هناك فى تلك المقبرة التى يعرفونها ولا يسمع كمال هذا الحديث حتى يمتلىء قلبه رضى وأملا .

وفى القرية مأذون صوره الكاتب فبرع فى تصويره فهو جماع للمال حريص عليه يؤثر التفريق بين الأزواج على الجمع بينهم لأنه إذا فرق بين الزوجين أخذ أجر الطلاق ثم أتيح له أن يزوج الرجل وأن يزوج المرأة فيأخذ على كل زواج أجرا . فالطلاق أربح له وأجدى عليه من الزواج . إذن هو لا يجمع بالزواج بين اثنين إلا تمنى أن يكون يوم التفريق بينهما قريبا .

وكل ما وقع إليه شيء من مال أضافه إلى ما ادخر ثم هو لا يأمن على ماله الخزائن أو المصارف وإنما يحمله دائما فى منطقة يديرها حول جسمه من دون ثيابه . يحس هو ثقلها ويجد دفئها وينعم بجوارها المتصل .

وقد خرج المأذون ذات مساء ليفرق بين زوجين فى قرية غير بعيدة وعاد إلى قريته وقد أظلم الليل ولكنه يسمع فى الطريق صوتا مروعا يدعوه إلى الوقوف فإذا همّ أن يمضى روعه الصوت مرة أخرى فوقف وقد ملأه الفزع ولا يكاد يقف حتى يحس برد السلاح على قفاه ويسمع الصوت يدعوه إلى أن يعطى ما معه من المال . فإذا هم أن يمتنع خيره الصوت بين المـــال والحياة فيختار الحياة آخر الأمر وينزل عن ماله ويعود إلى أهله مسلوب المال والصحة والعقل جميعا .

ويتصل هذا النوع من الإرهاب مرة ومرة حتى تمتلىء قرية السلام رعدا وذعرا ولا يجد العمدة سبيلا إلى استكشاف هذا الشيطان الذى روع القرية بعد أمنها فأرق ليلها ونغص نهارها وأفسد أمرها كله . والمأمور يطالب العمـــدة بالمجـــرم وينذره بالوقف إن لم يدل عليه .

وإذا كان العمدة لا يعرف هذا المجرم فالقارىء يعرفه حق المعرفة فهو كمال الذى يتكفف الناس فى النهار ويسلب الأغنياء أموالهم إذا كان الليل . وقد جلس كمال إلى رفاقه يتداولون بينهم الحشيش ذات ليلة ويتحدثون فى أمر القرية وما ألم بها من الهول ولكن مجلسهم ذاك لا ينقضى حتى يكون كمال قد أقنع رفاقه

الأربعة بأن يكونوا مثله قطاعا للطريق يسلبون الأغنياء ويروعون الآمنين ويتخذونه لهم رئيسا .

وهم يفعلون بعد أن أقسموا على المصحف ليكتمن السر وليسمعن للرئيس وليطيعن أمره فى غير تردد ولا جدال .

وقد وضع كمال لهذه العصبة قاعدة غريبة كل الغرابة تنأى بالقصة عن الواقع كل النأى فهى تأخذ من الأغنياء لترد على الفقراء أقل ما تأخذ وتستأثر بسائره تتخذ الخير والبر وسيلة إلى الإجرام والإثم . تريد أن ترضى الفقراء على حساب الأغنياء فى ظاهر الأمر . وتريد أن تعز أولئك وتسلب هؤلاء فى حقيقة الأمر . ولا تلبث العصبة أن تفرض الأتاوة على كل قنطار من القطن يباع وعلى كل ما يمكن أن تفرض عليه الأتاوة ولا تتردد فى قتل من لا يستجيب لها من الذين تفرض عليهم أتاواتها . وقد قتلت بالفعل مرة فملأت القرية فزعا وهلعا حتى أذعن المالكون لأمرها . وكان العمدة نفسه بين المذعنين وإن أخفى تأديته للأتاوة محافظة على ظاهر من احترام هيبة الحكم والسلطان .

وجعلت الألسنة تنطلق بالثناء على جماعة الخير هذه والدعاء لها فى الإعلان وتكتم القلوب بغضها ومقتها واستعداء الله عليها فى أعماق الضمائر . وأصبح كمال غنيا موفورا قد ظفر بإرضاء حاجته إلى الغنى وبإرضاء نفسه من إزلال الأغنياء الذين كان يتحرق حقدا عليهم وحسدا لهم .

ولكن فردا واحدا من أهل القرية يأبى أن يذعن الأمر المجرمين ويزمع أن يخرج قناطيره القليلة من القطن إلى المدينة سرا فى

ظلمة الليل فيبيعه ويعود بثمنه آمنا ولكن العصبة فطنت له فتربصت له فى الطريق وقتلته . وكان العمدة وأحد الخفراء عائدين من المحطة فسمعا صوت السلاح واستخفيا ولكنهما استطاعا أن يريا شخص القاتل ونبأ العمدة المحققين بما رأى وشهد الخفير وقبض على القاتل ... وافتضح بعض أمر الجماعة فأزمع كمال أن يروع العمدة حتى ينكر ما أثبت فى التحقيق . ووجد الوسيلة إلى ترويعه فاختطف ابنته تلك التى أحبها واستيأس منها وهو لا يزال لها محبا ومنها يائسا فهو لا يريد بها شرا وهو لا يطمع منها فى شىء ولكنه يأمر الذين كانوا يصحبون الفتاة حين اختطفت أن ينبئوا أباها بأن ابنته سترد عليه آمنة يوم يعدل أمام النيابة عما أثبت فى محضر التحقيق .

ويلجأ العمدة بعد خطوب إلى ذلك الكبير الشرير الذى يقيم فى قرية مجاورة والذى اتصلت المودة بينه وبين المجرمين ليرد عليه ابنته فيعده بذلك . ويتقدم إلى أصدقائه فى أن يردوا الفتاة على أبيها لأنه محتاج إليه فى الانتخابات المقبلة . ويأبى الأصدقاء إشفاقا على أنفسهم وعلى زميلهم ذلك السجين ويخرجون وقد انتقض الود بينهم وبين صديقهم ذلك الكبير الشرير . فهم قد أضمروا قتله من ليلتهم وهو قد أمر رجاله بقتلهم من ليلتهم أيضا . وتكون موقعة بين الجماعة وبين رجال الكبير الشرير فتقتل الجماعة وترد الفتاة على أبيها ويعود الأمن إلى القرية وتنتهى قصة الروع . فتنتهى معها قصة أخرى لحب لم نشر إليه .

ففى القرية فتى من أبناء الأغنياء قد أتم التعليم العالى

أو كاد يتمه وأبوه صديق للعمدة وبين الفتى والفتاة حب قديم يرجع إلى الطفولة وقد طلب الفتى إلى أبيه أن يخطب على العمدة ابنته فرفض العمدة الخطبة لأنه يريد لابنته زوجا أوسع ثراء وأعظم جاها من ابن صديقه . ولكن قصة الروع تنتهى فتنتهى معها قصة الحب لأن العمدة يقبل الفتى صهرا له ويرشحه مكانه عمدة للقرية ويزمع السفر إلى القاهرة هاربا من القرية ومما لقى فيها من روع لا هاربا من الأيام كما ظن الكاتب .

وقد لخصت تلك القصة فى إطالة شديدة ، وفى إيجاز أشد منها لم أجد بدا من الإطالة لأبين لك أن القصة واقعية فى تفصيلها نائية فى جملتها وفى غايتها عن الواقع . كل التفصيلات يعرفها الناس ويرون أشباها لها فى حياة بعض القرى أحيانا ولكن هذه الجماعة التى تأتلف لتأخذ من الأغنياء وترد على الفقراء ليست من واقع الحياة فى شىء . ليس من واقع الحياة أن يتخذ الناس الإثم والنكر وسيلة إلى الخير وأن يتخذوا هذا الخير نفسه وهو إعطاء الفقراء وسيلة إلى اقتراف الجرائم والآثام .

كل هذا قد ابتكره خيال الكاتب الشاب ابتكارا وليس عليه بذلك بأس ، فمن حق الكاتب أن يستجيب لخياله حتى حين ينأى به عن الواقع شيئا . ولكن ليس للكاتب أن ينسى أن قصته تنشر على الناس فيقرأها منهم الراشدون والقاصرون ويقرأها منهم العقلاء والأغرار وقد ينخدع بعض هؤلاء عن بعض ما يقرأون . وقد يصادف من نفوسهم مواطن الضعف وقد يورطهم ذلك فى بعض ما يسوؤهم ويسوء الناس بهم . والكاتب مسئول أمام

ضميره أولا وأمام الجماعة التى يكتب لها ثانية . فليس له بد من أن يستحضر تبعته حين يكتب وحين ينشر أو يذيع . ولست أدرى من أين اشتق خيال الكاتب لهذه الصورة صورة العصبة الآثمة التى تتخذ الإثم وسيلة إلى البر وتتخذ البر نفسه وسيلة إلى الإثم . ايمكن أن يكون قد قرأ كثيرا أو قليلا من أخبار الصعاليك فى حياة الجاهلية وفى بعض الأمصار العربية بعد الإسلام . أولئك الذين كانت تضيق بهم سبل العيش ويكرهون النظام الاجتماعى الذى لا يتيح لهم تحقيق ما يطمحون إليه فيخرجون على النظام ويستبيحون لأنفسهم النهب والسلب والقتل أحيانا ويعيشون فى عزلة عن الجماعة لا يدنون منها إلا ليروعوها ويرزأوها فى أموالها ثم ينأون عنها ليعيشوا فى عزلتهم أجوادا كراما يؤمنون الخائف الذى تنقطع به الطريق ويطعمون الجائع ويعطون المحروم . يرون هذا كله مكملا لمروءتهم ومحققا لرجولتهم ويفاخرون بهذا كله فى شعرهم الذى حفظت منه كتب الأدب أطرافا لا بأس بها .

ولكن عصر الصعاليك قد انقضى فنحن لا نعيش فى البادية ولا فى القرن الأول للهجرة وإنما نعيش فى الحاضرة ونعيش فى القرن الرابع عشر للهجرة وما ينبغى لعصر الصعاليك أن يعود وهو لم يعد والحمد لله . أيكون الأستاذ قد قرأ شيئا من أخبار هؤلاء الصعاليك الذين يأخذون من الأغنياء ليردوا على الفقراء .

ولا يغضب الكاتب فقد كنت أحب له أن يجد صنعة أخرى غير الأخذ من الأغنياء والرد على الفقراء الآن لهذه الصيغة مكانها الملحوظ فى فرض الزكاة وتحبيب الصدقة إلى الناس .

وأنا بعد هذا معجب بمنهج الكاتب فى قصته ومذهبه فى هذه الكتابة باللغة الفصيحة النقية التى لا تشـــق على قارىء مهما يكن حظه من الثقافة وهى لا تنأى مع ذلك عن اللغة التى تليق بالأدباء ولا تنحط بهم إلى الإسفاف والابتذال .

وأنا واثق بأن كاتبنا الشـاب قد بدأ طريقا طويلة أصابه شىء كثير من النجح فى أولها وما أشك فى أن حظه من النجح والتوفيق سيزداد ويعظم كلما مضى إلى امام .

د. طــه حســين.

— ١ —

فى فرحة غامرة واستبشار بيوم جديد ، وفى تكاسل رخى وبطء هادىء ، تحرك الشيخ زيدان أبو راجح عمدة قرية السلام ، ونزل عن سريره لينادى الخادمة :

— يا فاطمة .

وسرعان ما رجع النداء بصوت الخادمة :

— نعم يا سيدى .

وصاح الشيخ فى تظاهر بالغضب يصحبه هدوء مستريح :

— يا بنت هاتى ماء الوضوء ، الفجر سيفوتنى !

وفى هذه المرة رجع النداء بالخادمة نفسها تحمل إبريقا وطستا ، وأخذ العمدة يتوضأ والخادمة تصب الماء ، ولكن العمدة لم يطق أن يتوضأ فقط ، وإنما هو — على عادته — يسأل الخادمة عن أفراد البيت فردا فردا ، فتختلط ألفاظ الوضوء بألفاظ الأسئلة :

— بسم الله الرحمن الرحيم ، نويت فرض الوضوء ... أين ستك ؟

فتجيب الخادمة وهى تصب الماء :

— نزلت عند الفرن .

ـــ اللهم اجعلنى أمسك كتابى بيمنيى ... وأين ســـتك درية ؟

ـــ تعد لك الفطور .

ـــ اللهم ولا تجعلنى من أهل اليسار ، وماذا عندكم اليوم فى الفطور ؟

ـــ عندنا يا سيدى ما يرضيك إن شاء الله ، عندنا فول وقشدة وعسل . الخير كثير والحمد لله .

ـــ اللهم ثبت قدمى اليمنى على الصراط المستقيم ، الحمد لله ، هذا شيء عظيم . أسأل عنى أحد اليوم ؟

ـــ لا .

ـــ ألم يحضر صالح أبو سعد الله فراخا ؟

ـــ يا سيدى إننا ما زلنا فى الفجر .

فيجيب العمدة فى شبه غيظ :

ـــ ولكنه مدين يا فاطمة .. الدين يا بنتى .. أينسى أحد دينه ؟

وتسأله فاطمة ذاهلة :

ـــ وهل اقترض صالح منك يا سيدى ؟

فيجيب العمدة وهو ينزل أكمام جلبابه بعد أن أتم وضوءه :

ـــ نعم .

وتسأل فاطمة وهى لا تزال فى ذهولها :

ـــ هل اقترض منك فراخا يا سيدى ؟

ويطلق العمدة ضحكة صغيرة ساخرة من غفلة خادمته ، ثم يقول وهو يثبت قلنسوته على رأسه :

ـ يا مغفلة أرأيت أحدا يقترض فراخا من العمدة ؟

ـ أنا الأخرى أتعجب يا سيدى !!

ـ لقد حكمت له فى قضية أمس فأقسم أن يحضر لى فراخا اليوم ... اليوم فجرا ، وها هو ذا الفجر يولى وهو لم يجىء . كم أنت ثرثارة يا فاطمة ! الفجر سيفوتنى . الله اكبر .. الله أكبر ... أصلى الصبح ركعتين فرضا حاضرا لله العلى العظيم .. الله أكبر .

وتركت فاطمة العمدة يقيم الصلاة ، وخرجت هى لتجد البيت وكأنما هو آلة زر إدارتها هو نداء العمدة « يا فاطمة » . فالسيدة الكبيرة تعد الفرن للعيش ، والسيدة الصغيرة تعد الفطور للأب ، وإن كلا من السيدتين لفرحة غاية الفرح بهذا العمل الذى تقوم به ، وإن كلا منهما لتصرخ بأعلى صوت لها ، فكلما ارتفع الصوت كان العمل الذى تقوم به ضخما يحتاج إلى مجهود كبير ، وعمل كثير ، وصوت جهير ، وسعى حثيث ، وكر وفر .

والعمدة فرح بهذه الأصوات التى تنبعث إلى حجرته ، فكلما ارتفع الضجيج ازدادت أهمية العمدة فى بيته ... وإلا فمن أجل من تقوم هذه القيامة ؟ ومن أجل من يعد العيش والفطور ، ويعلو الصراخ ويحث السعى ويكر ويفر ؟ أليس كل هذا من أجله هو ؟ رجل البيت وعمدة البلد على رغم كل سن ورمح يمكن أن يتعرض له . وينتهى العمدة من صلاته ، ويرتفع صوته فى شبه غضب ولكن فى هدوء تماما كما كان ينادى فاطمة ، ولكن ـ دون

أن يحس ـــ خالجت الصوت نبرة من حنان وحب لايطيق الأب كتمانها حين ينادى ابنته :

ـــ يا درية .

وتجيب الابنة فى فرح ولكن فى تظاهر بالعمل :

ـــ حالا يا أبى .

وما هى إلا لحظات حتى تدخل درية حاملة طعام أبيها ، ويستقبلها الأب فى عطف بالغ ...

ـــ ما هذا الجمال يا بنت ؟ من أين تزيدينه كل يوم ؟

وتجيب درية فى خجل فرحان :

ـــ طبعا يا أبى ... إن لم تشهد لى أنت فمن يشهد ؟

ولم يكن العمدة كاذبا فى هذه المرة ، فقد كانت درية جميلة حقيقة ، فهى بيضاء صافية اللون ، إلا من حمرة وردية تخالط بياضها بمقدار ما يجعل جمالها حيا مترثبا ، وهى ذات شعر ذهبى منسرح فى تموجات ثائرة معربدة ، وإنها لتشجع هذه العربدة من شعرها فهى لا تكبح جماعه بمنديل أو شريط ، وإنما تتركه على هواه فيلتوى حيث يطيب له أن يلتوى ويسيل حين يطيب له أن يسيل ، وهو على الحالين جميل رائع الجمال ، وإن لها جبهة طاب للشعر أن يأخذ مكانا كبيرا منها فأخذ دون رادع ، ولم يترك إلا ومضة ضيقة يتبعها حاجبان مرسومان فى دقة رائعة ، يعلوان عينين خضراوين ينبعث منهما نور فيه ذكاء لماح وجمال آسر ، يعقبهما فم ما هو بالصغير ولا هو بالكبير ، وإنما هو شفتان فيهما غلظة رتيقة ، تزيدهما جمالا تلك النثلة التى تصل الشفة العليا بالأنف الصغير ذى الأرنبة



المتوثبة . والوجه فى مجمله يكاد يستدير لولا ذلك الذقن الصغير الذى أبى إلا أن ينفر نفورا منعه الجمال أن يشتط ، تتوسط خدها الأيمن تلك النونة الصغيرة التى تزداد وضوحا عندما تضحك درية ، وكم كانت تضحك درية . كل هذا الجمال بعلو رقبة تلعاء تغضى إلى صدر ينهد إلى باكر الشباب ، حيران بين الظهور الواضح والاستخفاء الخجلان ، ودرية فارعة الطول هيفاء غيداء ، متوثبة إلى الفرح سريعة إلى الضحك ، تستعجل الأيام والأشخاص والأشياء ، لا تطيق أن ترى الأيام تمضى مكتملة جميعا ، تتمنى لو أن النهار أومض ثم أعقبه آخر . ثم هى تكلم الناس جميعا فلا يشعرون أنها مغرورة بجمالها هذا ، وإنما هى تغمرهم بفيض من حنان فيحسون وكأن درية يهمها من أمرهم ما يهم أصدقاءهم الأقربين .. لم تكن درية تستثنى من عطفها هذا شخصا أو شيئا ، نعم فإن من الناس أشياء ، وهل كان كمال إلا شيئا ؟ حتى هذا الشىء كانت درية تبذل له من كريم عطفها ما جعله يحس أن له وجودا ولا وجود له ، أو أن له كيانا ولا كيان له ... لقد كان العمدة محقا إذن حين فرح بابنته عندما قدمت إليه بالفطور فى باكر الصباح ، وكان محقا فى تدليلها ، فإنه هو لا شأن له بتربيتها فما كان يفهم فى أصول التربية إلا أن يقول ما يراه ، وهو يرى ابنته جميلة غاية الجمال ، ويرى الناس من حوله وحولها يحبونها . ولا يهم العمدة إن كان حب الناس لدرية مبعثه أنه عمدة أو أنها تستحق هذا الحب ، إنما كل شأنه أنهم يحبونها . ولو أن درية تركت لتدليل أبيها لكانت الطامة الكبرى ، ولفقدت هذا الحب الذى يحبونها به الناس ... لم يكن تدليل أبيها

وحده هو قوام أخلاقها ، وإنما كانت أمها من ورائها تشتد حين ترى لين الأب مائعا ، وتقسو حين ترى البنية تنحرف عما تريده لها الأم .

أفطر العمدة في يومه هذا ، وهم بأن يغير ثياب نومه ليخرج إلى الناس ، حين سمع صوتا يعلو بجانب شباكه . ولم يسأل من ذاك فقد عرف الصوت وصاحبه ... كان ذاك هو كمال أبو منصور ذلك الشيء الذي ينطلق مع الفجر يلتمس رزقه بالدعاء للناس ، وما هو بالشيخ العجوز الذي يقعده الكبر ، ولا بالمريض المقعد الذي تحتجزه العلة ، ولا هو بالعاطل المتبطل الذي يفقره العجز ، وإنما هو شاب في ريعان الفتوة مكتمل الجسم موفور الصحة . وما له لا يكون وهو على كل مائدة واجد زاده !! وهو — بعد — صاحب صنعة تجمع بين نقيضين ، فهو رجل الأحزان والسعادة ، وهو نجم المأتم والفرح ، وهو الناعق عند الفراق الذي لا لقاء بعده في الدنيا ، وهو البشير بلقاء يرجى فيه الاتصال ... إنه عمود الوفيات في قريته ، فما لاقى إنسان ربه إلا كان كمال هو ناقل نبأ هذا اللقاء إلى أهل القرية ، حتى يبادروا إلى القيام بواجب العزاء ورد الجميل السابق ، ومساندة أهل الذاهب ، الحزين منهم والمتظاهر بالحزن .

وما لاقى إنسان زوجته إلا كان كمال أبو منصور هو الزغرودة ... زغرودة الرجاء التي تنطلق مبشرة باللقاء ، على حب كان هذا اللقاء أو على طمع في مال أو جاه ، أو كان على ظروف اقتضت فتحكمت فكان الزواج ... لا شأن لكمال

بشىء من هذا ، وإنما كل شأنه أن يعصم بالوفاة أو الزواج فيهب إلى طبلته يعلقها إلى رقبته ويمسك بمصاه الحيزران الغليظة بعض الشىء ، ويطوف بالقرية . ولن يسمع أهل القرية نغمة حزينة أو فرحة ، وإنما هى دقات تصاب بها الطبلة فتطلق لها صوتا ضخما يصيب بدوره آذان الآمنين من قرية السلام . نعم لقد كان كمال أبو منصور طبالا ... فهو إذن ليس متبطلا . ولكن قرية السلام قرية لا تزيد ، ولن تجد بالقرية ملاقيا لربه أو لعروسه فى كل يوم . وقد تتباعد الأيام بين كل لقاء ولقاء ، ولكن مواقيت الغذاء لا تتباعد ، والبرد يأتى فى موعده المعلوم . وكمال يعتقد أن الكرامة كل الكرامة هى أن يحصل على قوت يومه ليس يعنيه أى سبيل يسلكه إلى هذا القوت . فما البأس به لو أنه طاف بالأغنياء من قريته يطلب أن يعوضوه خيرا عما يفوته عليه عدم انتظام الوفاة أو الزواج ؟ ولا بأس عليه ما دام قد فكر فى الأغنياء أن يكون فى مقدمتهم عمدة القرية وعميدها ، لا بأس عليه نعم ... ولكن أكان عدم البأس وحده هو الذى ساق كمالا إلى موقفه هذا ، أم أن هناك سببا آخر ؟ .. ويحك يا كمال ! ماذا تراه يكون السبب ؟ .. حذار أن تفكر .. حذار أن تهمس نفسك ولو إلى نفسك .. ولكن لتقل الحق ، وما ضرك أن يقال وهو مجرد أحلام ؟ وهل تملك يا مسكين إلا هذه الأحلام ! ؟... نعم إن كمالا ليقصد إلى بيت العمدة لينال من بر العمدة ، وليفتتح يومه بنظرة كريمة طيبة متفضلة تلقيها إليه درية مع ما تلقيه إليه من طعام ... وهو لا يطمع فى غير تلك النظرة ، وإنه

ليعتدها كرما منها يتخاذل إزاءه كل كرم يلقاه من أى كريم ، وإنه ليعتدها زاد الدنيا الذى به يعيش إلى أن تتحقق له آمال وأحلام . وكم فكر فى هذه النظرة إذا ما خلا بمغارته ! وكم وقفت هذه النظرة حائلا دون أفكاره العاتية أن تنثال فى ذهنه ! ولكنه مع هذا لا يطيق الصبر عليها ... لا بأس إذن بكمال أن يقف دون الشباك فى باكر الصباح داعيا إلى الله :

ــ أن يطيل عمرك يا حضرة العمدة ... ويبقيك لنـــا ... يا رب .

ويجيب العمدة فى فرح مبتسم ، سعيدا أنه مقصد يدعى له ويسعى إليه .

ــ خيبك الله يا ولد يا كمال ... يا بنى الفجر حاضر لا يزال ... ألا تنام يا ابن الملاعين ؟

ويجيب كمال فى تظاهر بالعبط والسذاجة السعيدة بهــذه المداعبة :

ــ أطال الله عمرك يا حضرة العمدة ، ولا أرانا فيــك سوءا أبدا ... والله صحوت وجئت إليك لأنى استبشر بوجهك يا حضرة العمدة .

ــ تعنى أنك تريد أن تجد مأتما بعد أن تشوفنى ؟

ــ العفو يا حضرة العمدة ، إنما وجهك كله أفراح .. اللهم أطل عمرك يا رب أنت وستى درية ... الأميرة المؤدبة ...

ويسارع بالاستدراك :

ــ وستى الحاجة .. يا رب .

ــ طيب .. طيب .. انتظر حتى تحضر لك فاطمة لتفطر ..

ويجيب كمال بالدعاء مترسلا ، ويترك موقفه من الشباك ويذهب إلى الباب الخلفى لينتظر ما سيجود به العمدة . وتمر به درية فيسارع منتهزا الفرصة السانحة . .

ــ صباح الخير يا ستى درية .

ــ صباح الخير يا كمال .. كيف حالك .. ؟ ألم تحضر لك فاطمة الفطور ؟

ــ ستحضره يا ستى .. لا تتعبى نفسك .. اللهم أطــل عمرك يا رب .

وتنصرف عنه درية إلى شئون المنزل ويظل هو حيث هو ، إن رأى عينا تطل عليه أمعن فى الدعاء للعمدة ولزوجته وابنته ، وإن أمن كيد العيون صمت وظل ينظر إلى الخــير الذى يرتع فيه العمدة ، فيرى الدجاج الكثير ومعــه الوز والبط ، ويلقى بنظرة إلى مرتع الماشية فيرى عددا وفيرا من الجاموس والبقر والثيران والحمير والخيل .. ويل للأيام ! أكل هذا الخير فى بيت واحد تنعم به أسرة واحدة .. ؟ ! أهذا عدل يا رب ؟ ويا ليته جمع ما جمع من الطريق الحــلال ! بل هــو النصب والسرقة والرشوة ... عدلك يا رب ... هذا العتل الغليظ يتمتع بكل هذه الخيرات وأنا لا أملك شيئا .. ما ذنبى ان كان أبى طبالا فكنت مثله ؟ وكان أبوه عمدة فهــو مثله .. ! أأنا الذى خلقت أبى وجدى ومن سبقهم وقلت لهم كونوا طبــالين فكانوا . ؟ ! أى ذنب جنيته ؟ ! آه لو تحقق حلمى .. ! اللهم حقق أملى يا رب .. شىء تافه ذلك الذى أرجو أن أحصل على ثمنه .. أو أجده .. أو حتى أجد فرصة لأسرقه ..

وتنقطع آمال كمال عندما تأتى فاطمة وفى يدها الطعــام ، ويسارع كمال داعيا لها ممازحا :

ــ اللهم أطل عمرك يا فاطمة أنت وسيدى وستى ..

ــ يا أخى كل .. مالك كثير الكلام !! ؟ أتظننــا فارغين مثلك ؟ ! كل بسرعة .

ولا يمنع هذا الرد الجاف كمالا من أن يصل مزاحه :

ــ اللهم لا تحرمنى من يديك الكريمتين . تتزوجينى يا فاطمة ؟

وتغضب فاطمة من هذا المزاح الثقيل ، وتثــور أن ينطق كمال ــ وإن كان مزاحا ــ بمثل هذه الكلمة ؛ فما كانت لتظن أن يخطر بباله هذا الفكر . وإن كان مزاحا فهى تسارع مجيبة وقد دقت صدرها بيمناها وبدا الحنق على وجهها :

ــ هل جننت يا ولد ؟ ! ألم يبق إلا أنت يا طبال حتى تقول هذه الكلمة ؟ ! والله إن لم يبق فى الدنيا كلها إلا أنت لما قبلت أن أسمع منك هذه الكلمة .

ولا يعجب كمال من ردها هذا كان يعلمه ، ولكنه يسارع ملاطفا فى ضحكة ما زالت مازحة :

ــ أعرف يا فاطمة .. لكنى كنت أمزح .

ــ ولو .. لكل شىء حد .. ! أيصل بك المزاح إلى هذا ؟

ــ لا تغضبى يا ستى فاطمة ، أنا غلطان .

ــ طيب ، كل وأسرع .

ــ اللهم أطل عمرك يا فاطمة أنت ..

وتتركه فاطمة وتنصرف إلى عملها ، ويفكر هو فيما كان بينه وبين فاطمة غير غاضب ، فهو قد تعود أن تصده الألسنة

وتعود أن يحتملها ، ولكنه يخاف أن يبلغ الغضب بفاطمة حد. تبلغ معه سيدها بما كان من أمره وأمرها ، ولكنه لا يلبث أن يصرف هذا الخاطر عن ذهنه فهى تعلم أنه كان يمزح ولن تذكر من الأمر شيئا ، ففاطمة عاقلة ، وهى تأبى أن يرتبط اسمه باسمها وإن كان بمزاح .

***

يخرج العمدة إلى شرفة منزله فيستقبله شيخ الخفراء بالتحية والود ، ثم يسأله العمدة :

ــ هل أرسلت أحدا يحرث الفدانين كما قلت لك أمس ؟

ويجيب شيخ الخفراء فى فرح :

ــ نعم يا حضرة العمدة .. لقد ذهب إليهما عبده أبو مسعود بعد صلاة الفجر مباشرة .

ــ وهل اتفقت معه على الأجر ؟

ــ خيرك سابق يا حضرة العمدة

ــ لا .. أنا لا اقبل هذا ابدا .

ــ لا تقبل ماذا يا حضرة العمدة ؟

ــ أيريد أن يرشونى أبو مسعود ؟

ــ لا .. ومن قال هذا لا سمح الله .. ؟ انما هو يقدم خدمة خالصة لوجه الله .

ــ آه ... إن كان هذا فلا بأس .

ــ وسيزورك الليلة إن شاء الله .

ــ زيارة لوجه الله أيضا ؟

ـــ طبعا . . طبعا يا حضرة العمدة ، لكن فقط . .

ـــ ماذا ؟

ـــ له مسألة بسيطة .

ـــ ما هى ؟

ـــ عبد الحميد جاره منع عنه المياه .

ـــ ابن الكلب ! والله لأمنعنه هو أن يروى أرضه ، وأجعلن الماء يمر فى أرضه إلى عبده أبو مسعود . . ألم يأت صالح حتى الآن ؟

ـــ لقد رأيته راكبا حماره فى الفجر ، يمر بالبيوت ليشترى الفراخ التى طلبتها منه سعادتك .

ـــ أنا ! . . أطلب ؟ أتعقل هذا يا عبد الجليل . . ؟ أليس هو الذى قال إنه سيحضر لى فراخا اليوم ؟ ! وحين أقسمت أن يأخذ ثمنها أقسم هو بالطلاق أنه سيحضرها هدية فى مقابل تعبى فى قضيته التى كانت بينه وبين امرأته ؟ سبحان الله يا أخى . . أأرفض الهدية وأطلق المرأة من زوجها ؟ ألم تكن شاهدا ؟

ـــ نعم يا حضرة العمدة ولكنى نسيت . ولكنك يا حضرة العمدة ـــ بسم الله ما شاء الله ـــ تتذكر كل شىء . . هذا ما كان والله !

ـــ وأنت ماذا تنتظر ؟ ألم تذهب لتراقب الأولاد وهم يجمعون القطن ؟

ـــ لقد جئت يا حضرة العمدة من أجل هذا .

ـــ من أجل ماذا ؟

ـــ أريد أن أجمـــع القيراطين اليـــوم ، وأريد أن تمنحنى إجازة .

ـــ ماذا جرى يا عبد الجليل ؟ أتطلب الإجازة اليوم ؟ وتريدها اليوم ؟ لماذا لم تقل بالأمس حتى أرسل غيرك ؟

ـــ والله يا حضرة العمدة نسيت .

ـــ دائما تنسى .. ولكن لماذا تجمع القطن اليوم .. ؟ لماذا لا تنتظر إلى الغد ؟

ـــ لقد ذهب الأولاد فعلا إلى الأرض .

ـــ اجعلهم يذهبوا إلى أرضى اليوم ، وغدا اجمع قطنك .

ـــ أمرك يا حضرة العمدة .

ـــ وما أجر الولد عندك ؟

ـــ مثلما تعطيهم يا حضرة العمدة .

ـــ عظيم .. لقد خفت أن ترفع أجورهم فيتركونى إليك .

ـــ وماذا يفعلون عندى .. ؟ سعادتك عندك الأرض واسعة ، أما أنا فثلاثة أفدنة .. أيتركون الدائم للعاجل .. ؟ أهم مجانين ؟

ويضحك العمدة ملء شـــدقيه بهذه المقارنة التى جعـــلته يزداد إحساسا بمكانته ، ويأمر شيخ الخفراء بالانصراف ليشرف على جنى القطن ونقل الأولاد من غيط إلى غيط ، ويكاد شيخ الخفراء يفعل لولا خفير التليفون الذى يأتى مهـــرولا مقبلا من حجرة التليفون التى كانت أمام الشرفه ... ويصيح الخفير :

ـــ انتظر يا شيخ الخفراء .

ويسأل العمدة فى قلق :

ـــ ماذا جرى لك يا ولد يا عبد الهادى ؟

ـــ المأمور يا حضرة العمدة .

ـــ ماله يا ولد ؟

ـــ يجىء الآن .

ـــ الآن يا ولد ؟ !!

ـــ الآن يا سيدى .

فيلتفت العمدة إلى شيخ الخفراء فى اهتمام :

ـــ عبد الجليل .. أين الخفراء ؟

ـــ فى الغبط .

ـــ اجمعهم وأسرع .

ـــ أمرك يا حضرة العمدة .. ولكن الا تعرف لماذا سيأتى المأمور ؟ .

ـــ علمى علمك يا عبد الجليل .. اذهب أنت الآن وأحضر الخفراء .

ولكن عبد الهادى خفير التليفون لا يجعله يذهب ، فكأنما أقسم فى صباحه هذا أن يثير الرعب والقلق فى نفس العمدة .

ـــ بل انتظر يا عمى عبد الجليل .

فيقول العمدة فى ثورة مكبوتة :

ـــ ماذا تريد أيضا يا عبد الهادى ؟

ـــ سعادة البك المأمور يريد مشايخ البلد .

ـــ أيضا ؟

ـــ أيضا .

ـــ ومن أين آتى بهؤلاء .. ما هذا النهار الأسود ؟

ولكن شيخ الخفراء يسرع إلى نجدة عمدته :

ـــ وما يهمك يا حضرة العمدة . ؟ سنخبر الذى نجده ، ومن لا نجده نخبر المأمور أنه ذهب إلى البندر لأنه لم يكن يعلم بمجيئه .

ـــ وهو كذلك .. اذهب إذن فادع من تجده ، ومر الخفراء أن يلبسوا ملابسهم الرسمية ويقفوا طلى طول الطريق من عند المفارق حتى البلدة ليؤدوا التحية .

ويذهب شيخ الخفراء ، وينفتل العمدة إلى منزله فى حيرة واهتمام بالغين مناديا زوجته :

ـــ يا صفية .. يا صفية .

وتجيب زوجته من أقصى المنزل :

ـــ نعم ... نعم .

فيسارع إليها العمدة حيث هى ويصرخ فى وجهها :

ـــ المأمور يا صفية ، المأمور !

ـــ ماله المأمور ؟

ـــ وصلت إلينا إشارة تليفونية الآن أنه ...

ـــ مات ؟

ـــ لا ... سيجىء .

ـــ أكل هذا لأن المأمور سيجىء ؟ .. أهذه أول مرة يزورك فيها المأمور ؟ .. إنك منذ عشرين سنة عمدة ، وفى كل يوم يأتيك مأمور .

ـــ نعم ، ولكن هذا مأمور جديد ، ويقولون عنه إنه شديد جدا

ـــ إنهم فى كل مرة يقولون إن المأمور الجديد شديد ، ثم

بأتى ، وما إن تصل إليه الفراخ والسمن والديوك حتى يصبح لينا لطيفا كالخراف التى تذهب إليه تماما .

ـ هذا صحيح ، ولكن لابد لنا من جس النبض أولا .

ـ اذهب واطمئن ، وكل شيء سيكون على ما يرام .

ـ الفطور يا صفية .. هذه أول مرة يزورنا فيها المأمور الجديد .

ـ الم أقل لك اطمئن .

ويذهب العمدة مهرولا ليرى كيف دبر شيخ الخفراء الأمر ، ولكن الوقت لم يتسع بعد لأن يصل شيخ الخفراء إلى أول خفير ، ولابد من الانتظار .. انتظارا قلقا مليئا بالأفكار السوداء .. أى داهية ستحط على دماغه إذا جاء المأمور ولم يجد ممن طلب أحدا .. لا شك أنه سيقفه عن العمودية ، ومن يدرى من أى حزب هذا المأمور ؟ لعله من الحزب المناوىء ؟ ! ولكن ما يهم ؟ إن جميع المآمير ينتمون إلى الحزب الحاكم ، والحزب الحاكم هو حزب العمدة والحمد لله .. لعله إذن شريف . يا للخراب لو كان شريفا !! . إذن فهو لن يقبل أن يتناول الفطور ، وإذن لن يقبل الهدايا التى سيقدمها له . ولكن كيف يكون مأمورا شريفا ؟ ! إنه مأمور .. ثم هم يقولون إنه مأمور قديم .. أى أنه ظل مأمورا مدة طويلة من الزمان وهل يعقل أن يظل مأمورا مدة طويلة من الزمان ويظل شريفا .. ؟ لو أنه كذلك لكان قد فصل منذ زمن بعيد !!! أو كان على الأقل قد نقل إلى وظيفة أخرى .. ! ولكن هب يا حضرة العمدة أنه صغير فى السن ، وأن تلك الأنباء التى وصلت إليك كاذبة ، وأنه ما زال طائشا مجنونا يعتقد فى الشرف

ويتمسك بأهداب الفضيلة .. إذن فهو متعجرف ولن يمكن لك يا حضرة العمدة أن تتفاهم معه ، وإذن فهو سيقفك ، بل لعله يفعل ما هو أدهى لعله يفصله عن العمل .. يا للخراب النازل !! .. يفصله من العمودية .. تلك الوظيفة التى ظل فيها عشرين عاما .. وأى مصير سيصير إليه ؟ وكيف تتزوج درية إذن ؟ ومن ذلك الذى سيتزوج ابنة عمدة مفصول ؟ .. نعم إن عنده خمسين فدانا ، ولكن ما خمسون فدانا بالنسبة للعريس الذى يرجوه لدرية ؟ .. إنه يريد شابا من كبار الأثرياء ، ابن أحد الباشوات ، فإن تواضع فابن أحد البكوات . وما الذى يدعو مثل هذا الشاب إلى الزواج من ابنة عمدة مفصول ، لا يملك من حطام الدنيا إلا خمسين فدانا لن تزيد ؟ ومن أين لها أن تزيد وقد فصل صاحبها من العمودية ؟ ! ويل لدرية من الأيام إذن لو كان المأمور شريفا !!

بل ويل لى أنا حضرة العمدة إذا كان المأمور شريفا .. ماذا أفعل ؟ .. أينتقل هذا التليفون الذى ظل ببابى عشرين عاما ؟ .. ألا يدعونى أحد إذن بياحضرة العمدة ؟ .. ومن ذلك الذى سيعين عمدة بدلا منى ؟ .. لعلهم ينتخبون ذلك الرجل الخرف عبد الرحمن السلامى . ذلك القزم القمىء .. ذلك الرجل النحيل ، الفقير ... نعم فقير .. إنه لا يملك غير عشرين فدانا ، ولكنه أغنى فرد فى البلدة بعدى .. ويل لى إذن .. لكن مالك قد يئست إلى هذا المصير الأسود ؟ إنك بعد لم تر المأمور .. آه إن المصيبة هنا .. إننى لم أر المأمور حتى الآن .. أكان لابد أن أكون مريضا حين دعا المأمور العمدة للاجتماع به ؟ أما كنت أستطيع الذهاب ؟ .. وكيف ؟ ! أكنت أريد المأمور

أن يرانى متوكئا على عصاى ، ضعيفا لا قوة بى ولا هيبة ؟ ماذا كان سيظن حينئذ ؟ لقد كان جديرا إذن أن يظننى ضعيفا غير حازم ، لا أستطيع معالجة الأمور الجلائل التى تتعرض لها العمودية . كان لايمكن الذهاب ولكننى أرسلت تلغرافا .. اجل .. إننى بهذا التلغراف أعلنت إلى المأمور الجديد أننى رجل أحترم اجتماع العمد ، كما أننى غنى لأنى أرسل تلغرافا لا خطابا مع خفير . كما أننى كريم لأننى لم أبخل بثمن التلغراف المطول الذى أرسلته إليه .. أجل لقد كانت فكرة طيبة فكرة التلغراف هذه ، وكان أسلوبه أيضا عظيما .. هذا الولد ابن الشيخ حسن يكتب كتابة عظيمة .. ولد طيب فخرى ابن الشيخ حسن هذا . لقد اهتم بالتلغراف اهتماما بالغا .. أكانت فكرته .. أم كانت فكرتى ؟ لا إنها فكرتى .. نعم هو فكر أولا ولكنى نفذتها . أجل ، ألست أنا من أرسل التلغراف .. ؟ ألست أنا من دفع أجره ؟ ولكن لا ، إنه هو الذى دفع الأجر . !!! نعم وهو الذى كتبه . ولكن .. ولكن ألست أنا على أى حال من وقعه ؟ ! ولكن التوقيع لا يصل مع التلغراف . !!! نعم ولكنه كان باسمى .. النهاية كانت فكرة عظيمة أقول فى التلغراف .. أعنى أن فخرى يقول باسمى : لمرض فاجأنى واضطرنى ألا أنال شرف ..

وحينئذ يسمع نفير سيارة قادمة من قريب .. أى نهار أسود هذا ! لقد وصل المأمور ولم يصل المشايخ .. ولا حتى الخفراء . وما هى إلا لحظات حتى كان المأمور يترجل سيارته

ذات الصندوق الضخم الرمادى اللون أمام بيت العمدة .. الحمد لله إن المأمور كبير السن .

ــ أهلا وسهلا سعادة البك المأمور .

ــ أهلا بك يا عمدة .

ــ شرفت يا سعادة البك .. نورت يا سعادة البك .

ــ شكرا يا عمدة .

يا عمدة .. من غير حضرة .. النهاية .. اللهم اجعله خيرا .

ــ لم تصلنا الإشارة إلا الآن يا سعادة البك ، وقد أرسلنا فى طلب المشايخ .

ــ أنتظر إذن .

ــ أظن أن سعادة البك لم يتناول فطوره بعد .. الفطور جاهز يا سعادة البك .

ــ ومالزوم التعب يا حضرة العمدة ؟

لقد جاءت حضرة أخيرا .. يومنا لبن إن شاء الله .. يسارع العمدة بالإجابة :

ــ تعب يا سعادة البك ؟ .. تعب ؟ .. فطور سعادتك تعب ؟! هذا شرف يا سعادة البك .. هذا تنازل يا سعادة البك .. يا ولد يا عبد الهادى .

ويأتى عبد الهادى مهرولا .

ــ نعم يا حضرة العمدة .

ــ الفطور يا ولد لسعادة المأمور .. أسرع .

ــ دقيقة واحدة يا حضرة العمدة .. دقيقة واحدة .

وينصرف عبد الهادى يتعجل الفطور ، ويجلس العمدة

إلى المأمور يبالغ فى التحية ويمعن فى التبجيل ، والمأمور يتقبل فى عظمة متواضعة وفى خجل متكبر ، ثم هو يقول وكأنما تذكر شيئا قد نسيه :

ـ آه ... لقد كنت ناسيا .. لقد ..

ويسارع العمدة :

ـ خير يا سعادة البك ؟

ـ لقد نسيت أن أقول لك : الحمد لله على سلامتك .

ـ سلمك الله وعافاك يا سعادة البك .

ـ مم كنت تشكو يا حضرة العمدة ؟

ـ الروماتيزم يا سعادة البك .

ـ آه ، هذا مرض ثقيل ؟

ـ أي والله يا سعادة البك .. وليس أثقل منه إلا المأمور الذى كان قبل سعادتك .

ويظهر الغضب على وجه المأمور ، ويثور بالعمدة ثورة جامحة :

ـ ماذا تقول يا عمدة ؟ .. اهذا يليق ؟

إذن فقد طارت حضرة مرة أخرى .

ـ العفو يا سعادة البك ، أستغفر الله .

ـ أهذه هى الطريقة التى تتكلم بها عن رؤسائك ؟

ـ .. يا سعادة البك ... يا ...

ـ الا تعرف أن المأمور الذى كان قبلى أخى الأكبر ؟

ويقول العمدة فى نفسه :

ـ « أنا عارف أنه نهار أسود » .

ثم يسارع إلى المأمور قائلا :

ـــ من تقصد سعادتك ؟

ـــ محمد علاء الدين .

ـــ ولكن .. ولكن يا سعادة البك أنا اقصد .. أنا اقصد الذى كان قبله .. ذلك الرجل الغاضب دائما .. فرق كبير بينك وبينه يا سعادة البك . أما أخوك ـــ حماه الله ـــ لقد كان رجلا بمعنى الكلمة .. والله لقد حزنا لنقله حزنا عظيما .. الله شهيد .

ـــ آه ، أنت تقصد عبد السميع بك ؟

ـــ آه ، هو هذا .

ـــ أعرفه .. رجل ثقيل ..

وينشرح صدر العمدة ، ويحمد الله فى نفسه ، فقد أصبح اليوم لبنا مرة أخرى ، ويقول للمأمور :

ـــ ثقيل ؟! .. ثقيل فقط يا سعادة البك .. أعوذ بالله .. سعادتك تعرفه إذن ؟

ـــ أعرفه .. كان رئيسا علىّ .. أنت محق يا حضرة العمدة .

إذن فقد عادت حضرة .. أهلا بها .. ولكن مشكلة جديدة بسبيلها إلى الظهور .. اللهم نجنا مما نخاف .. ألم يجد صالح الكلب وقتا للفراخ إلا الآن .. طارت حضرة .. لا بل طارت الفراخ .. يا أخى الفراخ فى داهية ، المهم الآن هو العمودية .. مصيبة لوكان هذا المأمور شريفا .

ويقبل صـــالح فى إعجاب شديد بنفسه أن أوفى بعهده وأحضر ما وعد به العمدة فراخ سمان .. وما إن يبلغ صالح

مجلس العمدة والمأمور حتى يتخفف من القفص الذى يحمله بأن يضعه فى زهو أمام الجالسين ..

ــ الفراخ يا حضرة العمدة .

ــ أى فراخ يا ولد ؟

ــ الفراخ التى ...

ويقاطعه العمدة فى سرعة خائفة ملتاعة :

ــ اذهب الآن يا صالح .. سعادة المأمور هنا ولن أشترى فراخا فى وجوده ..

وينقذ المأمور الموقف فى كياسة مرنة وفى دربة واعية :

ــ والله فراخ عظيمة يا حضرة العمدة ..

وكأنما كان العمدة فى غمرة من بحر متلاطم ثم وجد نفسه فجاة على الشاطىء الأمين ، فهو يسارع قائلا لصالح :

ــ ضع هذه الفرخ فى سيارة البك المأمور يا صالح .

ولكن المأمور يستر الموقف فى غضبة واضحة الاصطناع ، يتقنها منذ تعود أن يقبل هذه الهدايا :

ــ لا .. لا يا حضرة العمدة .. والله لا يمكن .

ــ زوجتى طالق إن لم تقبل هذه الهدية .

ــ يا رجل اتق الله .. حرام يا رجل .. الأمر لله .. الأمر لله .

وبين هذه الأيمان المتبادلة كانت الفراخ قد أخذت مكانها المستقر فى السيارة ، وكان الفطور قد أعد ، وكانت نفس العمدة قد هدأت بعد اضطراب ، فقد رضى الله عنه وأرسل إليه مأمورا

طيبا مثل كل مأمور عرفه قبل اليوم ، والحمد لله من قبل ومن بعـــد .

دخل العمدة وراء المأمور إلى المنزل ، ونبت من مكان خفى ذلك الشيء كثير الدعاء كثير الحقد « كمال » ، بعد أن رأى المسرحية منذ بدئها حتى أنزل عليها الستار في حجرة الطعام .. وسار كمال في طريقه وهو يردد :

ـــ يا رب أهو كثير ما أطلب ؟ .. مجرد مسدس يا رب أو ثمنه .. من أي مكان .. مسدس يا رب .

— ٢ —

للكتاب فى القرية أثر بعيد ، فمن بين جدرانه المتهالكة ومن تحت فلقة الشيخ العنيفة ، يخرج إلى الحياة صبيان تعلموا الجهل فأحسنوا تعلمه . فكل ما يعرفونه من الثقافة قراءة عاجزة ، وكتابة أكثر عجزا ، وهم وإن كانوا قد أخذوا على الشيخ القرآن فحفظوه إلا أنهم أبدا لم يفهموه ، وما كان لهم أن يفقهوا منه شيئا والشيخ نفسه أكثر جهلا به منهم . ويخرج هؤلاء الصبيان إلى الحياة وينظرون حواليهم فيجدون أنفسهم أكثر من ذويهم علما وأكثرهم معرفة ، فيدخل إلى نفوسهم الغرور ، ولا يزال بهذه النفوس حتى يملأها لا يترك فيها مكانا لتواضع ، أو منفذا لبعض حياء . وللغرور فى هذه النفوس أشكال وأوضاع . فمن كان منهم ذا يسار ونعمة يرتكن إلى أب ذى مكان بعض ملحوظ ، فغروره إذن متفجر واضح لا يبقى ولا يذر ، فهو هو الأستاذ الغنى والعالم القدير .

ومن كان منهم غير ذى يسار ، ولكنه ذو أصل دارس وغنى تشتت فأصبح فقرا فبيته دوار وإن كان خاليا ، وأبوه محترم وان كان فقيرا ، وأمه لا تخرج بالجرة وإنما ترسل أخته .. إن

كان الفتى كذلك فغروره إذن صمت ، واستعلاؤه بعد عن سائر الفتيان .

وأما من تخرج فى الكتاب فلم يجد وراءه أصلا ، ولم يجد أمامه مالا ، فكبره إذن خبيث ، يؤديه اللفظ اللين الناعم يغلف به السم الناقع المتراكم فى نفسه ، وكبره أيضا حقد مستعر وكره للعالم كله متمثلا فى قريته ، يخص منها ذوى اليسار وذوى الأصل ، وذوى المكان وذوى الثقافة .

ولا ينكسر الغرور فى واحد من هؤلاء إلا إذا تقدمت به السن أو أتاحت له الحياة أن يكمل تعليمه ، فإنه حينئذ يدرك مقدار ما كان يجهل ، ويرى من حوله القوم متساوين معه إن لم يكونوا أحسن منه حالا ، فيصاب غروره برعدة ، ثم ما يلبث أن ينقشع عنه .

وقد كان كمال من هذا الصنف الأخير من المتكبرين . وقد رأينا بعض كبره عندالعمدة ، فما كان تزلفه الحقير إلا كبرا ، فهو يعتقد أنه بألفاظه تلك قد طوى العمدة وضحك منه ، وأنه ببعض ألفاظ لا تكلفه شيئا — فما كانت الكرامة عنده شيئا — قد بلغ من مال العمدة ما قدر لنفسه أن يبلغ فى يومه هذا .

سار كمال فرحا بنفسه وبذكائه ، متحسرا فى الوقت نفسه على هذا الذكاء الذى ابت الدنيا إلا أن تعطله ولا تتيح له مجالا يسعى فيه ، حاقدا على هذه الدنيا البخيلة ، أشد حقده على ذلك العمدة الذى يهدى الفراخ السمان ليضمن لنفسه البقاء فى منصبه .

ولم يطل بكمال المسير فسرعان ما التقى بفئة من القرية لا تحس



به ، إلا أنه هو يعتقد أنها تبغضه وتحقد عليه لأنها تخافه وتخشاه ، تلك هى فئة التلاميذ أولاد المدارس .

لقد كان كمال يعتقد أن هذه الفئة تحس بمبلغ علمه وتعرف أنه يزاحمها فيما تعلموه فى المدارس ، وأنه بذكائه وحده غنى عن تلك الكتب التى يحبسون فيها عقولهم ، وهم ينفسون عليه هذا الذكاء المتوقد الذى لم يمنعه من الظهور إلا زمن غادر ، وفقر مريو .

وهكذا شاء كمال أن يسخر من تلك الفئة المتعالمة ، فما إن رآها حتى قصد إليها فى استرخاء ساخر ، وعلى فمه ابتسامة تعلم أن يضعها على فمه منذ رأى شيخ الكتاب يستعملها إن أراد سخرية ، وفى لسانه لفظ تعلم أن يديره منذ اتخذ الاستجداء وسيلة إلى الحياة .

ـــ أطال الله عمركم ، وأخذ بيدكم وجعل النجاح نصيبكم .

وشاء أحد التلاميذ أن يتبسط مع كمال :

ـــ شكرا يا أبا كمال شكرا .

ولكن تلميذا آخر يسرع بالإجابة :

ـــ ولكن شكرا هذه لا تنفع يا أبا كمال ، والذى ينفع ليس معنا .

ويدرك كمال ما يقصد إليه التلميذ فهو يقول :

ـــ فهل أنتم مفلسون ؟

ـــ يا رب كما خلقتنا .

ـــ فاشرحوا لى آية من القرآن فأكون قد أفدت منكم علما ما دمت لم أفد مالا .

ـــ الله .. يا أبا كمال .. وهل نحن فارغون لمسامرتك ؟

ـــ أنا لا أراكم تعلمون شيئا ؟

ـــ والله إن فراغنا أحب إلينا من أن نشغله بك .

ـــ خذ يا أبا كمال قرشا وتوكل على الله .. مع السلامة .

ويأخذ أبو كمال القرش وقد ازداد إيمانا أن فئة التلاميذ تخشاه وتبغضه ، ولكن لا بأس بها ما دامت تدفعه عنها بالمال مهما يكن قرشا .

ويمشي كمال ليكمل دورته اليومية ، فقد كان يأخذ نفسه بالعمل الكثير ويجرب ذكاءه يوميا على كل فئة من فئات القرية ، وقد كان لابد له أن يدور طوال يومه حتى لا يبغته وقت الغداء خاليا بعيدا عن الناس . وكان لابد له أيضا أن يغشى الجامع ليقيم الصلاة فى موعدها مع المصلين ، فإن عدم الصلاة فى القرية كبيرة من الكبائر التى لا تغتفر ، وهو يحب أن يترضى عقول القوم وأن ينسرب إلى قلوبهم من أى سبيل .. وقد كان كمال بعد هذه الواجبات جميعا يخلو إلى نفسه منذ الأصيل إلى الغروب فى مغارة فى الجبل لا يعرفها إلا هو .

وقد وجد كمال أن ثمة فسحة من الوقت قبل أن تجب صلاة الظهر ، فهو إذن يستطيع أن يعرض لقوم آخرين ، إن لم يصب منهم مالا فهو على الأقل يحتسبها عليهم مرة لم يعطوه فيها ، فيضطروا إلى إعطائه فى المرة التالية .

وهكذا أخذ كمال يمر على الناس فيجد النفور والازدراء أغلب الأحيان ، أو يجد الإعطاء الشحيح بعض الحين ، أو لعله يجد ـــ ولكن نادرا ما يجد ـــ سماحة فى البذل وكرما فى اللقاء . ومهما

يكن اللقاء وعلى أى نوع له ، فإن كمالا ينصرف ونظره إلى السماء داعيا الله . نعم . الله الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والبغى ويعظنا لعلنا نتقى ، يجرؤ كمال أن يتجه إلى هذا الرحاب ليسأله .. « مسدس » ، أداة القتل والعدوان ووسيلة المنكر والبغى .. ولكن من للشرير غير الله ؟ . سبحانه متجه القلوب جميعا ... حتى كمال .

كل امله ان يجد هذا المسدس أو يجد ثمنه ، فإن لم يتيسر فلتكن بندقية أو مقروطة ، والمقروطة بندقية جار عليها الزمن فقطعت مقدمتها فلا هى بندقية ولا هى مسدس ، ولكنها عند القتل تؤدى الغرض كما يؤديان . ثم هى تمتاز عن البندقية فى انها تختفى فى الثياب فلا يراها احد ، وعن المسدس فى أنها تحكم التصويب وتبلغ الهدف فى وثوق . وصاحب المقروطة فخور بها اشد الفخر ، يدعى — لشعوره بنقصها — أنه قطعها خصيصا حتى يبتعد مرماها ، مخالفا فى ذلك كل ما يقول به هواة السلاح وخبراؤه . لا بأس بها ايضـا لكمال ولكن ... اين هى ؟

وفى « أين هى ؟ » هذه مشى كمال يفكر ، ويمنى نفسه الأمنيات ويوسع للأحلام آفاقها ، ويمر بالفقير المعـدم فينظر إليه نظرة الاخ فى الشقاء ، ويعزم فى نفسـه إذا ما عثر على المقروطة وتحققت الآمال أن يجعل لهذا الفقير نصيبا من بعض ماله . ثم هو يرجع إلى نفسـه يسـائلها إن كانت ستسمح يومذاك ؟ فإذا نفسه تجيبه فى سرعة متوثبة أنها ستسمح ، فيعود إليها يسائلها : من أين لها هذا الخير الذى تصطنعه ؟

فلا تعجز نفسه عن الجواب ، فما هو الخير الذى يدفعها إلى البذل وإنما هى الحاجة .. حاجة ؟ الكون يومئذ فى حاجة ؟ . نعم حاجة إلى الناس وليس إلى المال .. إلى الناس ! .. إلى الكثرة الكاثرة من الناس ، فإذا سأل نفسه عن نفعها من الناس ، وماذا يفيد هو من هؤلاء الذين تريد نفسه أن يضمهم إليه ، ويبسط عليهم فضل عطفه وسابغ رحمته ؟ . حينئذ تضحك منه نفسه تلك الضحكة الصفراء التى عرفها لها منذ امتزجا فاتفقا ، ولا تسكت نفس كمال عن الجواب :

ــ ألا تعرف ماذا تريد من الناس أيها الغبى ؟ ألم تر منصور الدفراوى كيف ينظر إليه الناس نظرة احترام وتوقير وهو القاتل السفاك ؟ ألا ترى أنهم يمتدحونه ويصفونه بالرجولة والكرم ؟ !

ــ وهبى ذلك صحيحا .. ما شأنى أنا بمنصور أو مهزوم فيما نحن فيه ؟ !

ــ أيها الغبى ألا تعرف أن الناس هم الذين يجعلون المجرم محسنا ، والقاتل كريما ، وما ذاك إلا لأنه يبذل لهم فنجان قهوة أو لفة جوزة ، أو كرسى دخان ، فإذا ذكّرهم واحد منهم أن هذا الذى يمدحونه قاتل وإن كان كريما ، سارع أكثر الجالسين ينهون ذلك المتحدث قائين له : ما لنا وماله إذا كان قاتلا أو غير قاتل ؟ المهم أنه كريم رحب اللقاء ، مفتوح البيت .. ألا ترى أن له بيتا والقرية جميعها تعرف عنه أنه قاتل ، ولكن واحدا منها لا يذكر عنه شيئا ؟ وكل من فى قريتنا هذه أو فيما جاورها إذا دعى للشهادة فى حادثة قتل ارتكبها منصور ذكر فى جرأة وثبات

أن منصورا كان يتناول العشاء عنده ، وأنه سهر معهم ليلته حتى طلوع الفجر يسمعون القرآن ، ويتبادلون الحديث .

وحينئذ ينتهز كمال الفرصة ليضحك من نفسه ، فيطلقها ضحكة معربدة :

ــ أيتها النفس الغريزة أمنّى تسخرين .. ؟ ألا تنظرين إلى قولك هذا كم هو تافه لا يسنده منطق .. أظننت الشهادة التى يؤديها الشهود فى صالح منصور ، مبعثها حب هؤلاء الناس لمنصور ؟

ــ أعرف أيها المتذاكى العبيط . إنه الخوف .

ــ نعم هو الخوف ، ولا شىء غير الخوف .

ــ أعرف ذلك وما هو عنى ببعيد ، ولكن منصورا يتيح لهؤلاء الشهود أن يتخذوا لخوفهم ستارا من الرجولة .. هو الخوف ما يرسلهم يشهدون فى صالح منصور ، ولكنهم يقنعون أنفسهم أنها الصداقة التى تربطهم بمنصور تحتم عليهم أن ينجوه عند الشدة ، ويساندوه عند الحاجة ، فهم يشهدون الزور ولكنهم يرضون الصداقة ، وهم تصطك أسنانهم خوفا منه ولكنهم يقولون : إنها تصطك خوفا عليه .

ــ وما يهمنى أن يقنعوا أنفسهم أو لا يقنعوها ، ما داموا سيؤدون ما أريد أن يؤدوه .

ــ هناك فرق أيها الساذج .. لو أرضيتهم .. أو أرضيت غالبيتهم أصبح لك من بينهم عيون على أنفسهم ، وأنت حينئذ تستطيع أن تتشدق فى يسر ، إنك تسرق ولكن المال مآله إلى الفقراء وليس إليك .

ـــ على أية حال أيتها النفس لا بأس عندى أن أذكر هؤلاء القوم حين يفتحها الكريم ونحصل على ..

وحينئذ وجد كمال نفسه وجها لوجه أمام الحاج إبراهيم الحسينى شيخ البلدة ، فما أسرع ما نفض كمال نفسه من حديث نفسه وفرغ إلى الحاج بكله :

ـــ صباح الخير يا عم الحاج إبراهيم .

ـــ صباح الخير يا ولد يا كمال ..

ـــ إلى أين إن شاء الله ؟

ـــ وما شأنك أنت ؟

ـــ إن كان الطريق طويلا أقطعه معك بلسانى فأسليك ونتحدث حتى تصل .

ـــ يا حول الله يا ابنى .. على كل حال قضا أخف من قضا . أنا ذاهب إلى دكان الحاج على أســـمع الراديو ، وكان الولد أحمد أبو خليل يريد أن يصحبنى إلى هناك ولكنى هربت منه ، وها أنتذا تحل محله .. قضا أخف من قضا .

ـــ لك حق يا حاج إبراهيم ، ربنا رحمك من ثقل أحمد .. ثقيل يا حاج إبراهيم ثقيل .

ـــ ثقلا لا يوصف يا كمال يا ابنى .. والعجيبة أنه يقــول النكات ويضحك منها ، ويعتقد أن خفة ظله لم ترد على بنى آدم ، وأنا رجل كبير .. لم أعد أحتمل .. مرارتى يا بنى لم تعد تحتمل .

ـــ ألم يبع لك الفدان يا عم الحاج ؟

ـــ أبدا .. مصمم على ألا يبيع هذا الفدان ، والفدان يا كمال واقف فى وسط أرضى كالعقلة فى الزور .

ـــ وكم عرضت عليه ؟

ـــ ثمانمائة جنيه .

ـــ وكم يطلب ؟

ـــ الفا .

ـــ له حق .

ـــ أما إنك بارد يا ولد يا كمال . الفدان فى أرضى إن لم أشتره أنا فلن يشتريه أحد ، وأنا مع هذا لا أظلمه وإنما ادفع له ثمانمائة جنيه بينما لا يساوى الفدان أكثر من سبعمائة ، فيستغل فرصة رغبتى فيه ويطلب الفا .. الفا مرة واحدة وتقول لى أنت له حق . أما إنك بارد مثله .

ـــ يا عم الحاج أنت لم تعرف قصدى .. أنا أقصد أنه محق فى أن يسوق الدلال ما دمت تعرض وتساوم .

ـــ وماذا أعمل ؟

ـــ مر .. أنت شيخ البلد .. أنت والعمدة على درجة واحدة .. ارسل فيه بلاغا إلى المركز ، وحين يجره العسكرى يترك أربعمائة بدلا من مائتين .

ـــ أما إنك شيطان يا ولد يا كمال .. أهذا معقول ... ؟ لا .. حد الله بينى وبين الفدان ..

وينقطع الحديث عند هذا الحد فقد وصل المتحادثان إلى المقصد .

وقد كان دكان الحاج على أو الحاجعلى ـــ كما ينادونه ـــ

منتدى الصفوة المختارة من القرية ، يتحلقون فيه حول الراديو ويشاركون ساسة العالم وساسة مصر فى تصريف الأمور ، وإن تكن هذه المشاركة تقف عند منتداهم هذا إلا أنها تريح أعصابهم وتهدأ لها خواطرهم ، وتجعلهم يعتقدون أنهم أهل تصريف وقوام أمور .

بلغ الحاج إبراهيم وكمال المنتدى ، وكان الجالسون هم الحاج على الطحان ، والشيخ رضوان العكلى المعلم الإلزامى ، وخطيب الجمعة ، والشيخ عبد الودود مأذون البلدة الذى يملك فيها عشرة أفدنة كاملة فى طريقها دائما للزيادة . وقام الجالسون يحيون الحاج إبراهيم ، ولكن الشيخ عبد الودود لم يقبل أن يسير الحاج إبراهيم فى صحبة كمال فهو يقول :

ـــ والله طيب يا شيخ البلد .. الم تجد غير كمال ليسايرك ؟

وغضب كمال لهذا التجريح من رجل لم يأخذ منه فى حياته مليما ، ولا ينتظر أن يصيب منه فى حياته مليما .. غضب كمال وكان غضبه فى محله .. فهو لا يغضب من أحد إلا إذا كان من غير المحسنين عليه ، وممن لا ينتظر أن يحسنوا إليه . وقد كان الشيخ عبد الودود من هؤلاء الذين لم تكن بينهم وبين كمال معاملة .. قال كمال :

ـــ وماله كمال يا عم الشيخ عبد الودود ؟ آ إن كنت أنت لا ترحم اترك رحمة ربنا تنزل .

ـــ الا تعرف ماله كمال .. ؟ شخص ضائع بلا صنعة !

ـــ سامحك الله يا شيخ عبد الودود .

ـــ لا شأن لك بالله .

ـــ ولماذا ؟

ـــ لأن الله يحب العاملين ولا يحب المتسكعين الخاملين .

وكاد النقاش يحتدم ، وكاد يصل بالشيخ والفتى إلى ما لا تحمد عواقبه ، فلم يجد الحاج إبراهيم بدا من أن يصرف كمالا فينصرف بعد أن يقول للحاج إبراهيم :

ـــ والله لأجل خاطركَ يا عم الحاج إبراهيم ، لأجل خاطركَ فقط .

ينصرف كمال ، ويقبل الحاج إبراهيم على الجماعة فى إقبال على الحديث ، وعلى تصريف الأمور السياسية والاقتصادية .

يتركَ كمال هذا المجمع الكريم من قادة القرية وزعمائها ، معزيا نفسه أن له مجلسا آخر بينَ قوم آخرين يعرف لنفسه مكانا بينهم ، ومهما يكن هذا المكان قاصيا غير كريم إلا أنه ـــ على أية حالٍ ـــ مكان .

— ٣ —

فى أقصى القرية بيت قائم بذاته لا يحيط به سكن ، اختار صاحبه مكانه بعيداً عن الناس ، ولم يكن اختياره هذا عفواً أو ليفكر فى خالق الليل والنهار — كما يطيب له أن يقول — وإنما اختاره خصيصاً ليعصى فيه ومنه خالق الليل والنهار .. معصية لا يتوقف شرها على مرتكبها وإنما هو يبيع المعصية لكل راغب فيها ، مدمن لها ، متكالب عليها .

يملك هذا البيت هلال النمرود ، وفى هذا البيت كان يتاجر فى المخدرات ، وفى هذا البيت تزوج النمرود من سلمى بعد أن أحبها ، وقد بنى لها هذا البيت من المكاسب التى سكبتها عليه تجارته .

وقد ظل النمرود يمارس تجارته فى بيته هذا بعد زواجه من سلمى وظلت أمواله تتكدس وتزيد ، ولكنه قابض يده فلا يخرج منها إلا ما يبقى له ولزوجه الحياة . وكانت زوجه تحاول جهدها أن تفك يده المغلولة تلك ولكن هيهات ، فهو يحافظ على تلك الأموال حتى ينمى تجارته ، فقد كانت تجارته تلك حبيبة إلى نفسه فقد أكسبته مالا وزوجة وبيتا ، بل أكسبته أيضا اسما ، فإن اسم النمرود الذى أطلق عليه قد جاءه من تجارته ، ومن مهارته فى تصريف بضائعه .

لم تستطع سلمى أن تنجب لزوجها بنين أو بنات ، فكانت تجارته عنده هى البنين والبنات ، فلها وحدها يختزن المال ، ولها وحدها يسهر الليالى الطوال ويجـوب المخـاطر ويغشى الأهوال .

والزوجة قابعة فى بيتها فلا مال فى يدها ولا ولد لها ولا زوج بجانبها ، فسرعان ما زالت عن هلال لهفة الحب الأولى واصبح لا يرى فيها إلا امرأة عقيما لا عمل لها إلا أن تفتح عليه أبواب الخراب .

وهكذا وجدت سلمى نفسها قد فقدت كل شىء ، ولم يبق لها إلا تركة حواء . . امرأة . . امرأة عطشى إلى الحياة . . مشوقة الى الولد . . مهجورة من الزوج . . متجردة عن الحياة . . والليل طويل والزوج بعيد والشباب فوار ، والذئاب كثير والبيت منفرد . . فخانت .

خانت سلمى زوجها . . ولم تجهد نفسها فى اختيار الرجل الذى لا تتم الخيانة إلا به ، فالبيت فى الليل مقصد زوار ، والزوار لهذا البيت لا يحتاجون إلى إغراء فهم يشترون المخدرات ، وهى من تبيع لهم والحديث بينها وبين المشترى سائر لا شك إلى الطريق . وقد كان المشترى يعرض وكانت البائعة تعرض عن كلامه ، ولكنها حينما أرادت أن تخون أقبلت ، واصبح المشترى يعلم — وهو يشترى — أنها تبذل له مع المخدر نفسها ، واصبح وهو يشترى البضاعتين يدفع الثمن لكليهما جملة . . . فتأخذ سلمى ثمن بضاعتها وتحفظ لزوجها ثمن بضاعته .

وظل الأمر كذلك حتى عرض لها ضمن المشترين شـاب

صغير ، لم يقف الأمر بينهما عند البيع والشراء بل اخذ طريقه إلى الإعجاب ، فأصبحت تمنحه بضاعتها بغير ثمن ، بل لقد منحته أيضا من بضاعة زوجها دون أن تتقاضاه ثمنها ، وإن كانت هى تعطى زوجها ماله كاملا .

وجدت سلمى فى هذا الشاب كل ما كانت تفقده ولا تجده ، ووجد هو فيها كل ما كان يؤمل فيه ، فقد كان الفتى يحب أن تكون له زوجة فى المساء إن خلا المساء من العمل ، ولا يحب أن تكون له زوجة فى الصباح مهما يكن صباحه فارغا . إلا أن سلمى كانت تريد لنفسها زوجا دائما لا يريم عنها فى صباح أو مساء ، فهى تطلب إلى الفتى أن يتزوجها فيقول :

ـ كيف ، وزوجك ؟

ـ وما شأنك ؟

ـ أيطلقك ؟

ـ وهل لابد له أن يطلقنى حتى تتزوجنى أنت ؟

ـ إذن فما معنى طلبك هذا ؟ ألا أتزوجك أنا فى كل ليلة ؟

ـ معناه أن نعيش معا فى الصباح والليل .

ـ وأين يمكن أن نعيش معا ؟

ـ فى أى مكان .

ـ نهرب معا إذن !

ـ ولم لا ؟

ـ والله ...

ـ أنت متردد .

ـــ لا أرى داعيا لهـــذا فنحن هنا مبســـوطان والحمد لله ، لا ينقصنا شيء .

ـــ لا ينقصك أنت .

ـــ فما ينقصك أنت ؟

ـــ رجل .

ـــ الا يكفيك رجلان ؟

ـــ تقصد نفسك وزوجى ؟

ـــ السنا رجالا ؟

ـــ اما هو فلا وجود له على الإطلاق ، وأما أنت ..

ـــ نعم ، وأما أنا .. ؟

ـــ وأما أنت فلا تاتى إلا مع الظلام ، ولا أراك إلا فى نور المصباح الباهت .

ـــ وفيم تهمك رؤيتى فى نور الصباح ؟

ـــ أريد أن أملكك جميعا ، أريد كلك ، أريد أن أحس بالرجل الوحيد الذى أحببته ، أريد نفسى أن تطمئن إلى هذا الركن الذى اخترته لحياتى ، أريدك .

ـــ وكيف نصل إلى هذا الأمل وانت زوجة لرجل آخر ؟

ـــ زوجة لوهم مضى وحلم تبدد ، لا أراه ـــ حين أراه ـــ إلا وهو بعد نقوده ، ويسلم بضاعته ، أو يتسلمها .

ـــ ولكنك على ذمته !

ـــ وما يهمك ؟

ـــ اخاف أن يتعقبنى .

ـــ اتخاف أنت ولا اخاف أنا ؟

ـــ أنت تريديننى جميعا ، وأنا لا أريد منك إلا ما أنال .

ـــ أيكفيك هذا منى ؟

ـــ وهل هناك أكثر من هذا ؟

ـــ نعم هناك .

ـــ ماذا ؟

ـــ أموال وفلوس ، نهرب معا ، ونتاجر معا .

ـــ وزوجك ؟

ـــ ألا تزال خائفا ؟

ـــ والله مسألة الفلوس هذه ..

ـــ مالها ؟

ـــ عظيمة .

ـــ إذن .

ـــ متى نهرب !

وهربت الزوجة مع بضاعتها جميعا من مخدرات وآدميين ، وعاد الزوج فوجد البيت خاليا .. فخرج يسأل الناس عن زوجته فوجد بلاهة عن الإجابة وخوفا من الإفصاح . وطالعه من وجوه الرجال إشفاق فيه كبر ، ومن وجوه النساء بسمة فيها اعتزاز وفيها ألم . ولكنه التقى بالاحتقار من الرجال والنساء جميعا . ومن ضجيج البلاهة والخوف والإشفاق والكبر والعزة والاحتقار عرف النمرود الإجابة ، ولم يعد إلى بيته ، بل لم يقم فى البلدة جميعا وإنما تركها من فوره ، ولم يعد إلا بعد ثلاثة أشهر وفى يده جريدة تتحدث عن امرأة قتيل لم تعرف شخصيتها ،

وراح هو يؤكد ان هذه القتيل هى زوجته ، وأما القاتل فقد كان يترك لذكاء سامعه أن يستنتجه .

وهكذا جعلت هذه الأكذوبة من خزيه فخارا ، ومن خجله تبجحا ، ومن هربه عن القرية إقامة فيها مطمئنة ، يحيط به من كل مكان تملق راجف واحترام مذعور .

عاد النمرود إلى بيته القائم فى أقصى القرية ، وجعل منه منتدى لأبناء الليل يجتمعون فيه على غابة تغيب بهم عن الوعى .

وكان العمدة على علم بهذا المنتدى ، ولكنه يغضى عنه عينا مشغولة بالمأمور والمعاون والرشاوى الصادرة عنه أو الواردة إليـــه .

وكان منصور الدفراوى كبير مجـــرمى الناحية هو زعـــيم المنتدى ، يتحلق حوله المعجبـــون والخـــائفون من ســـيرته ، والمتملقون الذين يريدون أن يتقنوا فن النفاق ويـــمرنوا عليه . ولكن هؤلاء جميعا كانوا يلمون بالجلسة فلا يلبثون إلا قليـــلا ثم ينفضون عنها ، وتخلص الجلسة إلى الأربعة الزعماء : منصور الدفراوى ، وهلال النمرود ، والزهار عبد السيد ، ونو الكحلة .

أما منصور فهو القاتل المحترف ، وأما هلال فهو الزوج الذى انصرفت عنه زوجته والذى ادعى أنه قتلها ، وأما الزهار ونور فنحن فى طريقنا إلى الالتقاء بهما .

فالزهار فلاح قديم دخل القرعة العسكرية ، ولكنه ما لبث ان قضى فترة الخدمة العسكرية فى الحبوس ، فقد تعود منذ كان فلاحا أن يسرق المالك ما أمكنه إلى ذلك سبيل . أما اليـــوم وقد دخل العسكرية فإنه لم يجد مالكا ليسرقه إلا الحكومة والزملاء ،

فسرق من كليهما وتعود الحبس . ولم يتعود من العسكرية إلا اللمم ، فقد تعلم كيف يصيب الهدف ، وتعلم كيف يسير فى دقة وكيف يميل بالطاقية الصفراء وكيف يفتح الزر الأول من أزرار الجلباب ، وتعلم من العسكرة أنه لن يمسك بالفأس مرة أخرى . وتعلم من العسكرية العجز الكامل عن أى عمل يمكن أن يعهد به إليه اللهم إلا الوقوف فى الطابور . ولما كان الزهار لا يجد طابورا خارج العسكرية ، ولما كان لا يجديه نفعا طاقيته المائلة أو زره المفتوح أو مشيته المنتظمة ، فإنه لم يجد عملا آخر الأمر إلا السرقة التى كانت عنده — قبل العسكرية وأثناءها — هواية ، فجعل منها احترافا وانضم إلى جماعة المخدرات مساعدا للنمرود فى تجارته ، وعضوا فى منتداه ، ولكن تابعا وليس متبوعا ينفذ الأوامر ولا يصدرها .

وقد قامت بينه وبين سعدية أم الخير قصة حب ، كان هو الطرف الوحيد فيها . فلم تكن الطاقية المنحرفة ولا الزر المفتوح ولا المشية المنتظمة ولا إجادة التصويب ، لم يكن شىء من هذا ليغرى سعدية به .. ولكنه أصر على حبها فلم تبال هى ولا أبوها إصراره ، وتزوجت من صالح أبى سعد الله .

وأما نور الكحلة فهو رجل حديث التخرج من سجن المديرية . ولقد سجن فى واحدة من جريمتين أحداهما يرويها هو والأخرى ترويها ملفات القضية القابعة فى المحكمة ، والتى لا يطلع عليها إلا المعنيون بالأمر . أما التى يرويها هو فهى أنه كان يحب فتاة تسكن فى جواره بالبندر ، وكانت البنت لعوبا تحب أن يعجب الناس بها ، وكان هو يرقبها ليل نهار . فحين عرف القسوم

أنها لا تسير إلا وعينه رقيب عليها ، انفضوا عنها وتركوها خشية عيونه الرقيبة وجبروته وعنفه ، وخشية سطوته وسلطانه ، فقد كان ساعى الباشا المدير . حتى كان يوم وقعت فيه مشادة بينه وبين ولد تافه يعمل كاتب حسابات فى المديرية ، فاغتاظ منه الكاتب وأراد أن يفجعه فى أعز شىء لديه ، فتقدم للجارة يخطبها ، فلم يجد نور بدا من أن يطلق الرصاص على الكاتب ولكن الرصاصة أخطأته ، لأن السلاح كان قديما ، فحبس نور .. تلك هى رواية نور .

وأما الحقيقة فهى أن نورا كان يعمل ساعيا بمكتب المدير حقا ، ولكنه لم يحب فتاة ولم يطلق رصاصا ، وإنما سرق حافظة المدير فى أول الشهر وعاش المدير شهرا يقترض . ولم يتمكن نور من إخفاء الحافظة بعد أن صرف النقود فقبض عليه وأودع السجن ، وشددت العقوبة لا لأن الحافظة حافظة المدير ولكن لأنه ساعى ، وكان المفروض أن يكون أمينا على الحافظة لا سارقها .

وعاد نور إلى القرية يعيش على ربع فدان وعشرة قراريط جمع ثمن أغلبها من نفحات القوم فى المديرية ، تلك التى كانت تعطى له عن كرم ، أو تلك التى كان يختلسها اختلاسا كلما غفلت عين صاحب مال عن ماله .

تلك هى الجماعة أكاد أكون قد ألمت بها جميعا لم اترك منها أحدا ، وإن كنت قد تركت شيئا لم أذكره فما أظننى قد أسقطت جليلا ولا أغفلت أمرا ذا بال . وهل كانت تلك اليد الدائرة بالمخدر إلا يدا تمتد عن كمية من الهمل تنظر إليها الجماعة أو لا تنظر ،

فهى بقعة فى الأرض لا تزيد . فأسرار الجماعة كلها تدار على مسمع من هذا الشىء يكادون لهوان شأنه لا يحسن أن معهم خامسا ، فجرائم القتل أو السرقة أو تجارة المخدرات جميعا تلقى ، ويخيل لأعضاء المنتدى أنها تلقى إلى الأرض ، فما كانوا يحسون أن فى وسطهم أذنا تسمع . ألم أقل لك إنهم ما كانوا يحســـون بصاحب الأذن جميعا فكيف بأذنه .

كان ذلك الشىء هو كمالا . وكان فى جلسته تلك يقدم إلى نفسه أمتـــع ما تتمتع به نفســـــه ، فلم يكن أحب إليه من تلك الجلسة يستمع فيها إلى هؤلاء الجبابرة وهم يروون أفاعيلهم وكيف نجوا منها . ولم يكن كمال غبيا كل الغباء فقد كان باستطاعته أن يعرف الكذب من الصدق فيما يقولون ، ولكنه كان يطلق إعجابه الضخم بأعمالهم جميعا ما وقع منها وما لم يقع . وقد كان مديحه شيئا مفروضا فى الجلسة ينتظره كل منهم ولا يجيب عليه ، وإنما يستقبله فى صمت فرحان ، ويمضى فيما كان يقول وكأن أحدا لم يمدح ، أو يقاطع ، أو يبذل أقصى غايات الجهد ليبلغ بنفاقه إلى أروع الإتقان .

هذه هى الجماعة التى كان ينضم عليها بيت النمرود فى كل مساء .

وكان قد مضى على الجماعة عدة أمسيات لم تتشرف فيهـــا بجلسة الدفراوى فى صدرها . وكانت الجماعة تقول فيما بينها إن لديه مأمورية فى بلدة ما .

حتى كان ذلك اليوم فإذا هم يتناقلون فيما بينهم أن الفرماوى قد قتل ، فيسأل الكحلة :

ـــ قتل ؟ من قال ؟

ـــ أنا كنت فى الزمارنة ، كنت أبيع بيعة إلى الطحاوى وعرفت أنه قتل .

ـــ إذن فالدفراوى نجح فى مهمته !!

ـــ وهل كنت تشك فى هذا ؟

فقال الزهار فى اعتزاز :

ـــ يد الدفراوى قاعدة لا تخيب أبدا .

فقال كمال :

ـــ تسلم ويسلم صاحبها البطل !! . قل لى يا زهار : من منكما أمهر فى التصويب أنت أم منصور ؟ .

ويقول الزهار :

ـــ اظن أننى أمهر لأننى تعلمت التصويب على أصوله فى العسكوية .

فقال نور :

ـــ لابد أن الدفراوى سيأتى الليلة .

فقال النمرود :

ـــ حتما ، فهو يجىء إلى هنا بعد كل حادثة .

فقال الزهار :

ـــ ولكن السلاح الذى يحمله فى هذه المرة ليس سلاحا رخيصا ، وأخشى أن تضطره المحافظة عليه إلى حمله مدة طويلة فيضبط معه .

فقال النمرود :

ـــ ومن الذى يضبطه معه ؟ الحكومة ؟ ! ما أحب إليها أن



(هارب من الأيام)

تتخلص من الفرماوى ، والرجل الذى استأجر الدفراوى رجل يحمى رجاله .

فقال نور :

ــ لطيف بك حماه الله رجل قليل المثال ، ولكن لماذا غضب على الفرماوى ؟ ألم يكن من رجاله ؟ .

فقال النمرود :

ــ كان ، وكان لطيف بك يترك له ربع خمسة أفدنة . فلما قتل له بهجت الدلمونى دخله الغرور وراح يطالب لطيفا بعشرة أفدنة ، وهدده بأنه سيخبر أهل الدلمونى . لطيف بك ــ طبعا ــ لم تعجبه الحال . أرسل لصاحبنا دون أن يعلم الفرماوى .

وقبل أن يسأل نور سؤالا آخر دخل منصور الدفراوى جامد الوجه يغطى مشاعره بكثير من الزهو واللامبالاة ، واستقبله الأعضاء بكثير من الإكبار والتحايا ، وراح كل منهم يهنئه بهذا النصر الجديد الذى أحرزه ، ولكن الزهار لم ينس موضوع السلاح فهو يسأل الدفراوى .

ــ كنت فى كل مرة ترمى السلاح فى الترعة ، ولكن سلاحك فى هذه المرة من النوع الغالى .

ــ والله لم يهن علىّ .

ــ فماذا فعلت به ؟

ــ وضعته فى التلفيعة وخبأته فى المقابر .

ــ وهل قتلت الفرماوى عند الجبانة ؟

ــ والله .. الرجل كان صيدا سهلا . طلبت إليه أن نخرج لنتمشى قليلا فقال : والله يا منصور لولا أنكَ أخى ولا أشكّ

فيك أبدا ما خرجت معك . فقلت له لماذا ؟ قال الرجل ــ يعنى لطيفا بك ــ فى هذه الأيام يكرمنى إكراما غير معقول . طلبت أن يعطينى عشرة أفدنة فأعطانى خمسة عشر . طلبت جاموسة فأحضر لى جاموستين . وأنا عارفه . ويهيأ لى أن المسألة فيها شىء . فقلت له وماذا فيها ؟ ألست رجله وواجب عليه أن يكرمك ؟ .

ودار بيننا الحديث ولم يلتفت إلى الطريق حتى وصلنا إلى الجبانة ، فإذا الفرماوى يقول : الله إلى أين يا منصور ؟ قلت : إلى هذه . قال : وما معنى مجيئنا للجبانة يا منصور ؟ قلت له : كلنا لابد من مجيئنا إلى الجبانة يا فرماوى ، كل إنسان لابد أن تكون الجبانة آخرته . قال : لا أفهم كلامك . قلت له : أفهمك . وأخرجت المقروطة من تحت الجلباب . حاول أن يمسك بها . كنت أنا قد أطلقت العيارين فى قلبه . أراد أن يقول عملتها يا منصور فلم يكمل « منصور » وودع .

فصاح كمال على الفور وكأنما كان يضع الكلمة على شفتيه :

ــ سبع يا ابنى سبع والله !

وصاح النمرود :

ــ يا سلام يا أولاد لو ذقتم لذة العيار الخارج من ماسورة بندقيتك لقلب عدوك ، يا سلام يا أولاد .. مريح .

وحينئذ رأى الزهار حشرة سوداء تمر بجانب حذائه فهم بقتلها ، فسارع الدفراوى ينهاه قائلا :

ــ اتق الله يا شيخ ، ماذا عملت لك ؟ لماذا تقتلها .. ؟ اقذف بها بعيدا ولا تقتلها ؟

وتصايح الجالسون إعجابا بشفقة الزعيم الدفراوى .

ولكن نورا لا يزال يختزن أسئلة لم يفرغها فعاد يسأل :

ــ ولم يسمع أحد انطلاق البندقية ؟

فقال منصور :

ــ الطلقات كثيرة فى هذه الأيام ، فالخفراء يحرسون القطن ويطلقون الأعيرة فى الهواء لإخافة اللصوص .

فقال الزهار :

ــ والله فلوس ترمى فى الهواء ، وهل يخاف أولاد الليل من أعيرة الهواء ؟ ! .

فقال نور :

ــ وأين قضيت ليلة البارحة ؟

فقال منصور :

ــ قضيتها فى دوار عمدة الفرايحة .

فقال النمرود :

ــ ونعم الرجل ، لا يمكن أن يعترف بشىء أبدا . لابد أنهم سألوه اليوم .

فقال منصور :

ــ وقال إننى قضيت اليوم كله معه .

فقال نور :

ــ فأفرج عنك فى الحال .

فقال الزهار .

ــ إنهم لم يقبضوا عليه .

فقال منصور :

ــ بل قبضوا علىّ (*)

فسأل النمرود :

ــ ولماذا ؟

فقال الدفراوى :

ــ المباحث سمعت من البلد أنه خرج معى ، وحاولت أن أعرف من هذا الذى أخبر المباحث فلم أستطع الاهتــداء إليه ، ولكنى وراءه لن أتركه ابن الكلب . عشنا وشفنا الدفراوى يشى به الناس .

فصاح كمال :

ــ جاءك الموت يا تارك الصلاة . . إنما قل لى يا أبا الرجال ، كيف ستصل إلى المقروطة إذا أحببت أن تصل إليها ؟

ولم يشأ منصور أن يجيب كمالا فقد رأى أنه فى هــذه اللحظة بالذات أكبر من أن يجيب أى إنسان ، فما الخطب إذا كان السائل كمالا ؟ ولكن نورا أعجب بسؤال كمال فأعاده على النمرود ، فأراد أن يسكت فألح عليه نور بالسؤال ، فقال فى مزاح قريب كل القرب من الجد :

ــ والله يا أولاد الكلب إذا ضاعت المقروطة لألزمن ثلاثتكم بدفع ثمنها . وضحك الجميع فى فرح غامر أن منصورا يمزح . ولكن كمالا فى هذه المرة لم يضحك فقد كان ملهوفا إلى ســماع ما سيقوله منصور ، وتكلم منصور أخيرا . .

ــ طيب سأقدم تعميرة على حسابى لمن يقول بماذا ميزت مكان المقروطة .

واشتد السرور بالجماعة من هذا التبسط ، وراح كل منهم يعرض ذكاءه ، ولكن منصورا قال فى آخر الأمر :

— كلكم حمير .. ألم يتذكر واحد منكم أن أختى مدفونة فى جبانة الزمارنة . وضعت المقروطة مع أختى ، أختى الحديد مع أختى من أمى وأبى .

وانطلقت ضحكة عالية قوية من هذه المقابلة الرائعة التى افتر عنها ثغر البطل . وفى هذه المرة كانت ضحكة كمال أشد قوة وأعلى ضجيجا من ضحكاتهم جميعا . إنها تحمل الكثير عن صدره وإنها تبدأ به عهدا جديدا ، وإنها أيضا — ولو أن هذا لم يصبح ذا أهمية كبيرة — تتملق البطل القاتل .

— ٤ —

كان الطريق إلى القرية خاليا لا يسير فيه أحد ، فقد كانت الساعة الثالثة من عصر يوم حار شديد الحرارة ، ولم يكن هذا موعد عودة الفلاحين من الحقل ولا ذهابهم إليه . وكأن الشمس قد وعدت الطريق فى يومه هذا أن تريحه من دائسيه ساعات طويلة من النهار ، فهى ترسل أشعتها القاسية فتسفى بوعدها للطريق . إلا أن الطريق لم ينعم طويلا بهذه الدعة التى هيأتها له الشمس ، إذ ما لبث أن بدا فى أوله شاب طويل القامة يسير فى همة توشك أن تصبح لهفة ، ولا يلبث هذا الفتى أن يقترب رويدا فإذا هو متناسق القسمات ، قوى الملامح أبيض الوجه ، دقيق الفم ، وامض العينين ، إن رأيته وهو يستقبل الأفق ورأيت هذا الطيف من الابتسامة الذى يترقرق على شفتيه خيل إليك أنه فتى فى طريقه إلى هواه . فإن أدركت ذلك فلا تظلم ذكاءك فإنك محق ، إنه فتى فى طريقه إلى هواه .

ليس هذا الفتى غريبا عليك فقد أطلعتك عليه حيرة العمدة حين كان ينتظر المأمور الجديد ، وحين كان يفكر فى تلك البرقية التى أرسل بها إلى المأمور ليعتذر إليه لمرضه من عدم حضور

جمعية العمد . أذكرت الآن الفتى ؟ ما إخالك فعلت . إنه فخرى ابن الشيخ حسن .. فمن فخرى ؟ ومن الشيخ حسن ؟

الشيخ حسن رجل من وجوه القرية قريب إلى العمدة كل القرب ، فقد جمعتهما ملاعب الطفولة وفلقة الشيخ فى الكتّاب ، ثم صحن الأزهر فى القاهرة ، ثم عودتهما دون أن ينالا شهادة . ثم جمعتهما من بعد الحياة فى القرية فكانا يواجهان الشدائد معا حتى تنحسر ، فإن هى تركت عليهما بعض آثار امتدت يد كل منهما تمسح عن أخيه أثر الشدة حتى تزول . وكانت هذه اليد تمتد بطبيعة لا أثر فيها لكلفة فكأنما هى تذود عن صاحبها ــ لا عن صديق صاحبها ــ شرا وقع أو يوشك أن يقع . وكلما مر بهما الزمان توثق ما بينهما من ود ، وكم حاول ذلك الزمان بالأشرار من أبنائه أن يفسد ما بين الصديقين ولكنها صداقة تأبت على الزمان وأشراره ، وصمدت لا تلين .

وهكذا عرف الناس الشيخ حسن على أنه الصديق الأول للعمدة ، فإن أراد واحد من أهل القرية أن ينال العمدة بشر احتشم أن يفعل على مسمع من الشيخ حسن ، فقد تعودوا منه ــ إذا فعلوا ــ شدة فى الرد وعنفا فى الإجابة .

وكذلك كان الأمر مع العمدة إن حاول محاول أن ينال من الشيخ حسن على مسمع منه . وقد يلين العمدة إن انتقده أحد ، وقد يلين الشيخ حسن إن لامه لائم ، ولكن واحدا منهما لا يلين ولا يسكت إن ذكر الآخر أمامه بنقد أو لوم .

ولم يكن الشيخ حسن فى مثل يسر العمدة ، ولكنه كان مستور الحال له فى أرضه ما يسد حاجته . وقد كان الشيخ

حسن ذكيا يعرف أن ما له إذا قسم بين ولديه فهما إلى الفقر ، فرأى أن يجعل الأرض من نصيب الأكبر والعلم من نصيب الأصغر ، وبرر هذا التقسيم لنفسه بأنه سينفق على الأصغر مالا جسيما مما تنتجه الأرض ، وهو فى إنفاقه هذا إنما يعدو على حق الأكبر فى النفقة ، فهو لذلك سيعوضه عما فاته بأن يجعل رأس المال كله حقا مباحا له بمجرد أن يتم الأصغر تعليمه .

وقد كان صلاح هو الأكبر وفخرى هو الأصغر ، وكان فخرى هو صاحب العلم فى تقسيم أبيه . وهكذا وجد فخرى نفسه يقاد إلى المدرسة منذ لا يذكر متى ، ومنذ ذلك الحين الذى لا يذكره كان يذهب فخرى إلى دوار العمدة مع أبيه حينا أو مع صحابته أو منفردا . وكان يلقى هناك جمعا من الأطفال ، وقد اتخذوا من باحة الدوار ملعبا يسع كل ما يعن لأذهانهم الطفلة من ألعاب ، فمن كرة تضرب باليد ، إلى كرة تلقف ، إلى كرة تتناشها العصى المعقوفة بألوان من الزجر والضرب والإلقاء ، إلى جرى لا يعرف هدفا ، إلى جرى هارب من الإمساك ، إلى وضع غمامة على عينين ، إلى غير ذلك من مراح الطفولة والصبا .

ومنذ ذلك الحين الذى لا يذكره عرف فخرى درية ، ومنذ ذلك الحين أحب فخرى درية ، أكان حبا ذلك .. ؟ إنه اليوم يعلم أنه الحب ، ولكن أكان إذ ذاك حبا .. ؟ لم يعد يدرى ! لقد شب هو عن مدرسة القرية وعن باحة الدوار ، فوجد نفسه يحب درية .. حبا لم يفجأه وإنما وجده معه كما وجد معه عينيه وقلبه ، لا يعرف كيف بدأ ولا يذكر متى .

ولكنه يعرف أن هذا الحب عوده أن يكون السابق دائما ،

فلم يكن يقبل أن تسمع درية عنه أنه تخاذل فى ميدان أو سبق فى مضمار ، فهو فى دراسته أول فصله ، وهو فى احتفالات القرية خير خطبائها ، وهو فى أبناء البلدة خيرهم . إن تحدث يجهد كل الجهد أن يقتسر المديح اقتسارا ، ويجهد كل الجهد أن يأخذ هذا المديح طريقه إلى أذن درية .

لم يعرف عنه أحد أنه انحدر إلى شر ، فإن أحدق به الشباب لينزلق به عرف كيف يمنع كل شائبة أن تلحق باسمه إذا ما ذكر اسمه عند درية .

وقد كانت درية تلقاه وقد أحاطت باسمه عندها كل هذه الهالة التى أقامها حول نفسه ، فتذكى حبها له بإكبار . وكان الشباب قد حال بين اجتماعهما منفردين بعلم من الآباء والأمهات . ولكن هذا الشباب نفسه مهد لهم اللقاء المختلس فى ستار من الليل ووقاء من العفة .

كانا يلتقيان فى باحة الدوار نفسها هناك تحت شجرة أظلتهما صغيرين وأظلت حبهما شابين ، والليل هاجع والعيون مغمضة إلا أعينهما ، والرقيب بمنأى إلا رقيبا أقامه فى نفسيهما أمــل فى الغد والزواج ، وماض من الطفولة والملعب يحمل لهما فى طواياه أنقى الذكريات .

كان حديثه يدور عن المدرسة ثم الكلية ، وكان حديثها يدور عن أتراب الباحة من اللاعبين وما صارت إليه أمورهم . فكانت تجد فى حديثه الدنيا التى لم تعرف عنها إلا ما تقرأه فيخيل إليها أن صاحبها أحاط بكل شىء علما ، وكان حديثها عنده أعمق من علم كل عالم عرفه أو لم يعرفه .

ثم ينتهى اللقاء بوعد على اللقاء . حتى إذا انتهت الإجازة انتهى اللقاء بوداع تشتبك فيه الأيدى وتتصافح القلوب وتتعانق الأرواح ، يفصل بين الجسدين أمل فى الغد والزواج ، وماض من الطفولة والملعب يحمل لهما فى طواياه أنقى الذكريات .

هكذا كان فخرى يقضى أمسيات إجازاته ، وهكذا استطاع فخرى أن يطارد الزمن فى تعليمه ، فهو فى الطليعة الأولى من الناجحين كل عام . حتى بلغ السنة الثالثة فى كلية الحقوق وأدى الامتحان وعاد إلى القرية .

وعاد إلى الأمسيات الحالية فى باحة العمدة ، إلا أن الحديث من درية لم يعد طلقا كما كان وإنما تمسكه عن الجريان غصة فيه مترددة بين الظهور والاستخفاء ، يحيط بهـــا حياء وخوف وإشفاق وهوى . ولم يكن عقله ليدرك هذه المعانى ، ولم يكن عقله بمطيق أن يصل إلى منابت تلك الغصة ، ولكن قلبه أحسها حين كان كلامها يصل إلى قلبه . كان يجد بالحديث حصى وهو يعرفه صافيا ، ويجد به رواسب ألم وهو يعرفه نقيا طلقا مصطفق المجرى حلو الأرانين .

ــ درية ؟

ــ هه .

ــ أنت تخفين شيئا ؟

ــ نعم .

ــ ولم تخفينه ؟

ــ لابد أن يختفى .

ــ حتى عنى ؟

ـ عنكَ بالذات .

ـ لعلنى أدركه .

ـ ما أظن .

ـ بل إنى أدركه .

ـ لا عليك .. فلنعد إلى حديثنا .

ـ ويلٌ للزمان .

ـ وما فعل الزمان ؟

ـ سرقنا .. سرق طفولتك وطفولتى ، فما عدنا نحس الأيام وهى تمضى .. غفلنا عن الأيام ولم تغفل .. أشرفت بك على النضوج وأنا بعد لم أنل تلكَ الورقة التى تؤكد أننى استويت ، وأصبحت لكِ أهلا .

ـ لا أفهم ما تقصد إليه .

ـ ومتى جاء الخاطب ؟

ـ بل لم يخطبنى أحد .

ـ فهناك من يسعى إلى خطبتك .

ـ ولا ذاك .

ـ فما الذى تخافين ؟

ـ خوف .

ـ مم ؟

ـ من الغد .

ـ وما فى الغد ؟

ـ ما أخشاه .

ـــ وما يدعوك للخشية ؟

ـــ حديث أبى .

ـــ أبوك !! ماذا يقول ؟

ـــ يقول .. ؟

ـــ نعم .

ـــ يقول .. يقول .. أريد يا درية أن أزوجك من ابن الحلال ، وأريده غنيا وافر الغنى ، وأريد لك بيتا بل قصرا فى القاهرة .. ما رأيك يا درية ؟

ـــ وبماذا تجيبين ؟

ـــ بالصمت .

ـــ بالصمت ؟

ـــ وماذا يمكن أن أقول ؟!!

ـــ لا .. أما أنت فلا تقولى شيئا .. إنه أنا من سيقول ..

ـــ وماذا تقول ؟

ـــ غدا تعرفين .

ويقوم فخرى من مجلسه والدموع تتواثب فى عينيه ، وتنثنى درية إلى حجرتها حائرة لا تدرى أصابت أم أخطأت بحديثها .

ويصل فخرى إلى منزله فيجد أباه ما زال صاحيا ويجد أمه وأخاه نائمين ، فينتهز الفرصة السانحة ويجلس إلى أبيه لا ينطق ، حتى يسأله الأب :

ـــ مالك يا فخرى ؟

ـــ لى أمل عندك يا أبى .

ـــ فقله .

ـــ أريد أن أخطب .

ـــ وماله .. ما أحب إلىّ أن أراك متزوجا سعيدا فى بيتك . ولكن ألا تنتظر حتى تأخذ الشهادة الكبيرة ؟

ـــ ولكن من أريدها لن ينتظر عليهــا الخطــاب حتى أنال الشهادة ، وأنا أريد أن أخطب فقط ثم أتزوج عندما أتم تعلمى .

ـــ والله يا ابنى لا أرى مانعا .. ومن هذه الفتاة التى لا ينتظر خطابها ؟

ـــ درية بنت العمدة .

ـــ نعم من اخترت يا بنى .. إنها فعلا لن تنتظر .. الحبيبة بنت الحبيب .. نعم الخيرة يا بنى .

ـــ فمتى تخطبها يا أبى ؟

ـــ كما تشاء .

ـــ غدا ؟

ـــ غدا .

ـــ ولكن .. ؟

ـــ ماذا ؟

ـــ ألا يحسن أن تنتظر حتى تظهر النتيجة ، وأنقل إلى السنة الرابعة ؟

ـــ وهل فى نجاحك شك يا فخرى .. ؟ إنك من الأوائل دائما .

ـــ ولكن يا أبى عندما أكون فى السنة الرابعة أكون قريبا

من التخرج ، وتكون مناسبة معقولة للخطبة ، وأنت تخبر عم الشيخ زيدان بنجاحى .

— والله يا ابنى كلام معقول .

— غدا سأسافر إن شاء الله ولن أعود حتى أعرف النتيجة ، وأجيئك بخبر نجاحى إن شاء الله .

— وهو كذلك يا ابنى .. على بركة الله .

ويقوم فخرى إلى فراشه فيراح إليه يكاد لا يستقر به من فرح غامر راح يتواثب فى حنايا قلبه ، يحاول أن ينام فتـذود عنه النوم تلك السعادة العنيفة التى انتهت بها ليلته ، فيدافع القلق عن عينيه بما جرى له فى ليلته تلك فلا يزيده ذلك إلا قلقا ، فيقبل على هذا القلق يكاد يعانقه فرحا به هو أيضا ، فما عاد يضيق بشىء حتى بتلك العيون المفتحة وخيوط الفجر توشك أن تنسج بردها من الصباح .

ويسافر فخرى فى أول وسيلة تصل به إلى القاهرة ، وتمضى أيام ثم ما يلبث أن يعود إلى هذا الطريق المؤدى إلى قريته فيدوسه بأقدامه ، ويكسر بذلك وعد الشمس الذى بذلتـه للطريق الا يدوسه أحد فى هذا الحر القائظ . ولكن ما لفخرى ولهذا الوعد !!! إنه عائد إلى قريته يحمل فى جنبيه أمل حياته .. ما مضى منها وما هو فى مطوى الغيب خبىء .

لقد نجح فخرى فى الامتحان وهو اليوم عائد لينقل بشراه إلى .. إلى من ؟

أيميل إلى درية فيحتال للقائها بكل سبيل ثم يلقى بين يديها نبأ انتصاره ؟ أم يقصد من فوره إلى أبيه فيستنهضه إلى العمدة

ليخطب درية ؟ . تكاد الحيرة تقلق الفرح الغامر الذى يتوائب فى كيانه جميعا ، ولكن قليلا ما تلبث هذه الحيرة .. فقد انتصرت درية .. وهل يمكن إلا أن تنتصر .

دوار العمدة صامت لا صوت به ولا حركة حوله ، فالجميع لا جئون إلى سقف يدرأ القيظ عنهم . انفتل فخـــرى إلى باحة الدوار وأجال نظره فى مراح الصبا وملتقى الهوى ، فما وجد غير تلك الشجرة التى أظلت الطفولة والشـــباب ، والتى يطل عليها الشباك ذو المصراعين الخشبيين اللذين يقفلان على أعواد من الحديد الأسود .

يلجأ فخرى إلى ملاذه القديم من ظل الشجرة ، وينقر الشباك نقرات لا تكاد تنتظم ولا تكاد تبين ، .. وتطل درية :

ــ من ؟ فخرى .. ؟ هل جئت ؟

ــ نعم .

ــ الدنيا نهار ، وللناس عيون !

ــ غبت عنك أياما كثيرة ، وعندى أخبـــار لا تعبـــأ بالدنيا ولا بالنهار ولا بالناس ولا بالعيون .

ــ خير ؟

ــ نجحت فى الامتحان وأصبحت فى السنة الرابعة .

ــ والنبى ؟ . مبروك .. مبروك يا فخرى .

ــ مبروك لا تكفى .

ــ وماذا تريد ؟

ــ الا تعرفين معنى نجاحى هذا .. ؟

ــ معناه انك أصبحت فى السنة الرابعة .

ـــ ومعناه أن أبى سيجىء إلى أبيك .

ـــ إلى أبى

ـــ نعم .

ـــ ولماذا ؟

ـــ لماذا ؟ ألا تعرفين ؟

ـــ أظننى أعرف .

ـــ فمالك لا تطيرين من الفرح ؟ ! مالك لا تكسرين هـــذا الحديد الذى يحول بيننا .. ؟ أراك واقفة لا تزالين .. درية .. مالكَ مطرقة ؟ !!

ـــ أخاف يا فخرى ؟ !

ـــ مم ؟

ـــ إن أبى يحلم أحلاما كبيرة لا اريدها أن تتحقق ، ولكن أخشى أن يرفض اليوم ما نهفو إليه وينقطع ما بيننا ، وأفقد حتى الأمل الذى أحيا به .

ـــ أبوك يرفض طلب أبى ! .. ألا تعـــرفين ما بينهمـــا من صداقة ؟

ـــ أعرف .. ولكن أخشى .

ـــ فدعى الخشية الآن .. وافرحى معى .

ـــ أرجو أن أفرح .

ـــ فافرحى .

ـــ الله لنا يا فخرى !

ـــ يا شيخة .. لقد أفسدت فرحتى بتفكيرك .

ـــ أنت محق يا فخرى ، فالتفكير ـــ على أى لون له ـــ يفسد

الأفراح .. ولكن لا عليك .. اذهب أنت الآن إلى أبيك ولندع الله أن يحقق آمالنا .

— إن الله أرحم من أن يفرق بيننا .

— قادر على كل شيء يا فخرى .

— طيب .. أشوقك فى المساء إن شاء الله .

— إن شاء الله .

ويمضى فخرى إلى أبيه وقد تطامنت فرحته بعض الشيء ، يفكر فى درية وفى صداقة أبيه لأبيها ، وفى نجاحه ، وفى مديح الناس له ، وفى المستقبل الذى ينتظره ، وفى حبه لدرية وحبها له . فإذا أراد عقله أن يجمح به إلى قلة ماله رد عقله فى عنف عن هذا التفكير السخيف ، وما المال أمام الصداقة والمديح والمستقبل والحب .. ؟

***

— ٥ —

قام كمال من جلسته فى بيت النمــرود وقد أحس أن الله أجاب سؤله وحقق رجاءه ومنّ عليــه أخيرا بما كان منتــهى آماله . فقد عرف فى هذه الليلة أين يحصل على سلاح ، وهو يعرف منذ أمد بعيد كيف يســتعمل هذا الســلاح ويعرف كل خطوة سيخطوها منذ أن يستعمله . وأراد كمال أن يحتفــل بمستقبله الذى رســمه فى ظل الســلاح وإن له لمراســم خاصة لاحتفالاته ، تعود أن يقيم هذه المراســم كلما حصــل على مبلغ كبير سكبه عليه فرح ثرى ، أو غفلة من صاحب مال مكنته أن يسرق هذا المال .

وكان احتفاله هذا مقصورا على نفسه ، يشاركه فيه جــزء آخر من الهمل يسعى فئ القرية ضــالا بلا هــدى ولا مأوى إلا الاستجداء والإلحاف فى الاستجداء .

كانت « وطنية » وذلك هو اسمها هى صديقة كمــال .. نشأت من المجهول وتسير إلى المجهول لا يعنيها من طريقها إلا أن تسير ، ولا يعنى أحدا من أمرها أن تسير أو لا تسير . فهى بنت المجهول أبوها الليل الدامس وأمها شــجرة على الطريق . عثرت بها قابلة القرية فى ليلة حالكة السواد ، ولولا أن وطنية

كانت تصرخ ما أحست بها القــابلة فى ليلتهـــا تلك ، ولولا أن القابلة كانت عائدة من ميلاد شرعى متعسر ما عاشت وطنية . وكانت البلاد فى ذلك الحين واقعة تحت موجـــة من مـــوجات الوطنية التى يثـــيرها الزعماء فرأت القابلة أن تسمى اللقيطة وطنية . وأصبحت وطنية فى القرية أكثر شهرة من الوطنية ذاتها ، فإن القرية لا تجد فى كل يوم حادثا مثل هذا يوسع لها مجالات الحديث والتخمين والاستنكار ، والتعوذ بالله من الشيطان ، واستغفار الله للجانى والجانية ، وطلب الستر على العبـــاد الصالحين وغير الصالحين . ولكن إجماع القرية كان منعقدا على أن وطنية من قرية أخرى ، إذا لا يعقل أن تحمل فتاة من القرية دون أن ترى القرية حملها ، وفتيـــات القـــرية غاديات رائحات على الملأ لا يتخفين .

وهكذا ظهرت وطنية فى القرية من ثنايا قصة خزى وعار ، وأكد الناس أنها غريبة من القرية فأصبحت تجمع إلى ذل العار انكسار الغريب . وفى وسط هذه الأمواج المتزاحمة من الهوان شبت وطنية تضارع بقبح وجهها قبح مكانتها فى القرية . وكأنما رفضت الطبيعة أن تهب لها شيئا تتعزى به فهى عجفاء بلا قوام على الإطلاق ، ينتهى خط جسمها من أعلى بكمية من الشـــعر الأسود القوى يتأبى على كل منـــديل يحاول أن يلم شـــعثه ، تعقبه إلى أسفل جبهة ضيقة ، فعينان صـــغيرتان تحيط بهما مرتفعات ضـــخمة ، لابد لك أن تنعـــم فيها النظر حتى تتبين خلالها أنف وطنيـــة الأفطس ، وما إن تتبينـــه حتى تقف حائرا كل الحيرة ، باحثا عن المكان الذى يمكن أن يدخل منه الهواء

أو يخرج إلى ومن جسم وطنية . ثم ما تلبث أن تفيق من هذه الحيرة حين يروعك فمها ، فإنك حينئذ ستدرك أن هذا الفم لا يمكن أن يمنع الهواء داخلا أو خارجا ، فهو من السعة بحيث يحتاج إلى قوة عنيفة لتمسك به مقفلا يذود الهواء أو أى شىء يدخل أو يخرج منه . فإن استطعت أن تحول عينيك عن الفم وتنحدر بهما إلى أسفل الوجه ، وجدت ذقنا يحاول جاهدا أن يخفى ما اتسع من الفم ، فهو صغير جميل ، يفضى إلى رقبة معتدلة وإن كنت ــ من شدة هزال وطنية ــ تكاد تحسبها امتدادا لجسمها ، أو تكاد تحسب جسمها امتدادا لتلك الرقبة .

تلك كانت وطنية التى شبت فى بيت قابلة القرية . وقد كانت القابلة ترى فى عطفها على وطنية أمرا يزيد من عطف القرية عليها ، ويجعل لها العذر إذا هى طلبت الجدوى أن تطالب بحق اللقيطة التى تقوم على تربيتها ، وكانت لا تعدم بين الأثرياء من يمد لها يدا سخية . وهكذا أصبحت وطنية ــ وهى النقمة على نفسها ــ نعمة على القابلة التى تقوم بشأنها .

ولكن الطبيعة أبت أن تبقى لوطنية هذا الملجأ الذى كانت تتوارى فيه من خزيها وغربتها .. فقد ماتت القابلة ولم تترك وراءها شيئا .. فقد شاءت ــ غفر الله لها ــ أن تحج .. فأخذت كل مال مدخر لديها ، وباعت كل ما عندها من حلى ، وسافرت للحج .. وأعجبها الحجاز فماتت هناك ، وخلفت بالقرية بيتا متداعيا ليس فيه إلا وطنية .

ولم تكن وطنية قد أخذت عن القابلة صناعتها ، فإنها حين

بلغت السن التى يمكنها فيها أن تتعلم شيئا كانت القابلة قد بلغت السن التى لا يمكنها فيها أن تعلم شيئا . فقد كانت — رحمها الله — فى سنيها الأخيرة راعشة اليدين بطيئة الحركة ، حتى لقد انفضت عنها المشرفات على الولادة ولم تبق لها إلا العوائد التى كانت تستجديها من الأغنياء .

وهكذا أصبحت وطنية وحيدة لا معين لها ولا عائل ، إلا يد تمتد وفم يستجدى .

وعلى هذا الطريق من الاستجداء اتصلت أسباب وطنية بكمال .

فكمال لا يجد حانيا عليه إلا وطنية ، ووطنية لم تجد رجلا إلا كمالا . فاتصلت الحاجات وتعارف الشريدان ، وأصبحت مراسم الاحتفال عند كمال أن يقضى لدى وطنية ليلة يصيب فيها طعاما يشتريه هو وتطبخه هى . ثم يبيت عندها ليلة ويخرج قبل الفجر ، فلا يحس أحد الطبخ أو المبيت .

وهكذا خرج كمال من بيت النمرود وقد حزم أمره على أن يحتفل الليلة بمستقبله الباسم .

كان الوقت صيفا والفلاحون فى الصيف يسمرون إلى عميق الليل ، فخرج كمال قاصدا إلى منزل عبد العزيز الجزار فوجده يدخل منزله بعد أن قضى سهرته مع إخوانه ، فاشترى منه رطلين من لحم الذبيحة التى ذبحها فى نهاره هذا ، وكان عبد العزيز قد تعود أن يبيعه رطلا بين حين وآخر فلم يدهش كثيرا لزيادة الكمية ، ولم يدهش مطلقا انه جاء للشراء فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، فقد تعود أن يبيعه — كلما باعه —

فى مثل هذا الموعد . ووضع كمال اللحم فى جيبه وذهب إلى جنينة العمدة ، فوجد عبد الله حارس الجنينة مشعلا نارا يصنع عليها قهوة ، فاشترى منه بطاطس وطماطم وكل ما لا بد من شرائه للاحتفال ، وقصد بحمله تحت ستار الليل إلى بيت القابلة سابقا وبيت وطنية حاليا ، وطرق الباب ..

ــ من ؟

ــ افتحى يا بنت الكلب .

وفتحت وطنية الباب هنيهة تسرب فيها كمال إلى داخل المنزل ، ثم أقفلت الباب وراحت تنظر إلى ما يحمله كمال .

ــ خير .. أين كنت طول هذه المدة ؟

ــ وما شأنكِ أنت ؟ . انظرى .. أحضرت لكِ اليوم رطلين لحمة من أحسن صنف .

ــ رطلين يا ابن الكلب .. ؟ لابد أنك قتلت قتيلا !!

ــ لا . لم أقتل بعد .

ــ وهل ستقتل ؟

ــ والله .. الله أعلم .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ مالك أنت بما أعنى وما لا أعنى ؟ .. هيا اطبخى لنا هذا الطعام فإنى أريدها ليلة نذكرها طول العمر .

ــ ولماذا نذكرها ؟

ــ لأننا غدا سنصبح أغنياء .

ــ أغنياء .. من ؟ أنت ؟

ــ نعم أنا .

ـــ أنت يا ابن الضائعة ؟

ـــ اخرسى يا بنت .

ـــ أنت أغنياء .. ولماذا .. ؟ وهل عمى الغنى حتى يجيئك أنت .. ؟ ألم يجد أحدا إلا أنت ؟

ـــ ومالى أنا يا بنت ؟ .. والله إنى مجهول فى بلد الكلاب هذه .. ولكن لا بأس .. غدا تعرفنى البلدة وتعرف قيمتى .

ـــ وما قيمتك ؟ .. أنا والله أعرف قيمتك كل المعـــرفة .. ضائع ابن ضائع ، لا خير فيكَ ولا منكَ .

ـــ غدا حين ترين المال فى يدى تعرفين قيمتى .

ـــ والله يا ابن الملاعين لو جاء المال إلى يدك ما نظرت إلى ولا عرفتنى .

ـــ لماذا يا وطنية ؟

ـــ يا ابنى أنا بنت حرام .. أتظن كلامكَ ينطلى على ؟؟ ؟ !! أنا أعلم أنى لست جميلة وأنكَ لا تأتينى إلا لأنك لا تجد غيرى .

ـــ لا والله يا وطنية .. الله أعلم .

ـــ فلماذا لا تتزوجنى ؟

ـــ ولم لا ؟ . نتزوج إن شاء الله .

ـــ يا أخى هيه .. النهاية .

وهكذا اتصل الحديث بين الشريدين على هذا النسق الأعلى من الحب .. ماذا ؟ أتظننى ساخراً .. لا وحقكَ ؟

فما كان الحب عندهما إلا هذا السباب الذى سمعت ، وإن كان كمال يجارى وطنية فى السباب على غير حب إلا أن سبابها



هى كان حبا دافقا عارما .. حب من لا تجد لها بين الناس إلا فتاها هذا ، فهو عندها الأب والأخ والأم والصديقة والصديق .

انتهت وطنية من طبخ الطعام وأكلا ، ثم انطفأ السراج على اثنين .. أما وطنية فمتوجسة شرا مما هددها به كمال من ذلك الغتى الطارىء عليه ، معتقدة فى عميق نفسها أن المال سيكون نهاية صلتها بكمال وفى هذه النهاية نهايتها هى . وأما كمال فيحلم بذلك الغد القريب حين يمسك بالمقروطة ، ويسعى بها إلى المجد الذى أعد لنفسه مراتبه ومراقيه .

— ٦ —

صحا العمدة من غفوة القيلولة وصلى فرض العصر وخرج إلى شرفة الدار ينتظر رفاق سمره الذين تعودوا أن يقصدوا إليه من قبل المغرب ، ويقيموا لديه حتى موعد العشاء ثم ينصرفوا .

أقام العمدة وحيدا فى يومه هذا بضع لحظات ، ما لبث أن أقبل بعدها الحاج إبراهيم الحسينى شيخ البلدة ، والشيخ رضوان خطيب الجامع ، والحاج على صاحب الراديو الذى يجتمعون عليه كل مساء منذ أن يتركوا العمدة حتى تنتهى الإذاعة من برامجها .

وقال العمدة :

— مرحبا .. ولكن أين الشيخ عبد الودود ؟ .. أتراه ذهب اليوم فى طلاق أم زواج ؟

فأجاب الحاج على :

— بل ذهب إلى طلاق فى عزبة النمايلة .

وقال العمدة :

— عظيم .. إنه يفرح بالطلاق أكثر من فرحه بالزواج ، فهو يقول إنه حين يطلق المرأة من زوجها يأخذ أجرا للطلاق ، ثم يزوج الرجل المطلق من امرأة ويأخذ أجرا ، ويزوج المرأة المطلقة

من رجل آخر ويأخذ أجرا ، فيكسب من جراء الطــلاق الواحد ثلاثة اجور بينما لا يكسب من الزواج إلا أجرا واحدا .

فيضحك الضيوف الثلاثة من بعد نظر الشيخ عبد الودود ، ويبدأ الحاج إبراهيم حديثا آخر فيقول :

ـــ ما رأيك يا حضرة العمدة فى الولد أحمد أبى قطران الذى يأبى إلا السوء دائما ؟ !

ـــ ما له يا حاج إبراهيم .. ماذا عمل ؟ !!

ـــ عمله أسود !

فقال الحاج على :

ـــ يعنى ما دام يرفض أن يبيع لك الفدان يكون عمله أسود .

ـــ لا والله يا حجعلى ، إنما الولد لئيم وينتهز الفرص ، وطبعه شين والعياذ بالله .

فقال العمدة :

ـــ قل لى ماذا فعل ؟ .

فسارع الشيخ رضوان قائلا :

ـــ قل لحضرة العمدة يا حاج إبراهيم ، قل له حتى يعرف أن الولد الذى يحميه لا يستحق الحماية .

فقال الحاج على :

ـــ سبحان الله يا شيخ رضوان ، أتنقلب على الوليد بهذه السرعة .. اكل هذا لأنه قال إن الحديث الذى قلته فى الخطبة غير صحيح .

فصاح الشيخ رضوان غاضبا :

ـــ هذا لا يليق يا حجعلى .. أنا أغضب من جاهل كهذا .. ؟

ومن أين له أن يعرف صحيح الحديث من غير الصحيح .. لا يا حجعلى .. لا يا رجل قل وغير .

فقال الحاج على :

ـــ لا والله لا أغير أبدا . فأحمد أبو خليل محق ، والحديث لم يقله النبى .

ويسأل العمدة :

ـــ أى حديث ؟

فقال الحاج على :

ـــ نعم إنك أنت من يفتينا يا حضرة العمدة .. اتعقل يا حضرة العمدة أن النبى .. النبى محمد الذى هدانا إلى الصراط المستقيم ، والذى جعل النظافة من الإيمان ، هذا النبى يقول : إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فغطسوه ، ففى أحد جناحيه داء وفى الآخر دواء .

وارتبك العمدة حينئذ وحاول أن يجيب ، ولكن الشيخ رضوان سارع قائلا :

ـــ إن هذا الحديث وارد فى صحيح البخارى .

فقال العمدة :

ـــ البخارى لا يكذب يا حجعلى .

فقال الحاج على :

ـــ لعل البخارى لا يكذب ، ولكن قد يكذب غيره .

فصاح الشيخ رضوان :

ـــ أتقصد أننى الكذاب يا حجعلى .. منك لله يا شيخ .

فقال العمدة محاولا تهدئة الشيخ رضوان :

ـــ لا تكن عجولا يا شيخ رضوان ، فالحـــج على لم يقصد إلى هذا .

وقال الحاج على مبتسما وقد أحس أنه أفرط على الشـــيخ رضوان :

ـــ لا والله يا شيخ رضوان ، أنا لا أقصد أنك كذاب ـــ لا قدر الله ـــ ولعلك قرأت الحديث فى كتاب غير البخارى ، نقل الحديث ونسبه كذبا إلى البخارى .

وهنا صاح الحاج إبراهيم :

ـــ ما هذا يا رجل ؟ أتكلم عن أحمد الكلب فتقطعون كلامى وتتشاجرون ؟

فقال الحاج على فى مزاح قريب إلى الجد :

ـــ أما آن لك أن تنتهى عن أحمد يا حاج إبراهيم .. ؟ الجميع يعرف أنه مختلف معك على الفدان الواقع فى وسط أرضك .

فقال الحاج إبراهيم محتدا :

ـــ اسمع يا حاج على .. امرأتى طالق ثلاثا يا شيخ ، إن أنا اشتريت هذا الفدان فى الحال أو الاستقبال ، أو إن أنا جعلت أحدا من أبنائى يشتريه ودفعت ثمنه سرا .. ما رأيك ؟ .

فبهت الحاج على هنيهة ثم قال :

ـــ لماذا يا حاج إبراهيم ، لقد كنت أمزح معك يا رجل .

فقال الحاج إبراهيم :

ـــ لا يا سيدى .. أنا رجل عشت عمرى شريفا .. عينت شيخا للبلد وكلكم تعرفون ان يدى لم يصلها مليم عن طريق غير شريف .

واحمر وجه العمدة ، وواصل الحاج إبراهيم حديثه :

ـ نعم إنى أريد شراء هذا الفدان .. وأستطيع أن أكتب البلاغ تلو البلاغ لأشكو أحمد أبو خليل وأقلق منامه وأجعله لا يبيت ليلة مطمئنا .. وأستطيع أن أحبس عنه المياه فلا يراها إلا فى دموع عينيه .. أستطيع يا حجعلى ولكنى لم أفعل لأنى شريف .. ولكننى أيضا لا أستطيع أن أسكت عن الحرام وأغفل على الزور وأستر على الإجرام ، حتى أمنع الناس أن يتهمونى بالتحيز ضد أحمد . أرض أحمد حرام علىّ وعلى أولادى فى حياتى .. حرمتها على نفسى لأقول الحق وسأقوله ...

فقال الحاج على فى خجل :

ـ لماذا كل هذا يا حاج إبراهيم .. ؟ لماذا كل هذا ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله .

وحينئذ قال العمدة :

ـ يا سلام يا حاج إبراهيم ، لو لم تكن سريع الغضب إلى هذا الحد لكملت محاسنك .. ألا إن الحلو لا يكمل .. قل لنا ماذا فعل أحمد أبو خليل ؟

فقال الحاج إبراهيم :

ـ يريد أن يتزوج سعدية أم الخير .

فقال العمدة :

ـ ولكن سعدية متزوجة !!

فسارع الشيخ رضوان قائلا :

ـ وهذه هى البلوى !

فعاد العمدة يقول :

ـــ إنها متزوجة من صالح أبى سعد الله ، وكانت غاضـــبة ورجعتها إليه .

فقال الحاج على فى ابتسامة خبيثة :

ـــ نعم .. نعرف يا حضرة العمدة .. ربنا يعمر بيتك .

فقال الحاج إبراهيم :

ـــ ولكن كيف تستقر المراة فى بيت زوجها إذا كان وراءها إبليس يوسوس لها كل ساعة ؟ .. صالح رجل فقير لا يملك إلا الخرقة التى يلبسها ويكد طول يومه ليعيش فى ستر . والولد أحمد يملك فدانين وعشرين قيراطا ، ويخل يومه رائحا غاديا أمام منزل صالح مرتديا الجلباب الحريرى ، ويا أرض انهدى ما عليك قدى . البنت جاهلة وعقلها صغير ، فهى اليوم فى بيت أبيها ، وقد صممت على الطلاق من صالح .. قصدنى صالح وشكا لى الحال وقال : إنه لا يملك ما يصلحها به .

فتساءل العمدة فى عجب :

ـــ لا يملك ماذا ؟

فقال الحاج إبراهيم فى شىء من التحدى :

ـــ ما يصلحها به يا حضرة العمدة ، فما العمل ؟ !

فقال العمدة :

ـــ سبحان الله يا حاج إبراهيم .. وماذا تريدنا أن نفعل ؟ امرأة تكره زوجها .. ! فكيف يصلح العيش بينهمـــا .. ؟ هل المعاشرة تدوم بالغصب ؟

فقال الحاج إبراهيم :

ـــ سبحان الله يا حضرة العمدة .. وماذا يفعل صالح .. ؟

وما ذنبه .. إذا كان فقيرا .. ؟ وهل تزوجته على أنه صاحب مائة فدان ، ثم اتضح لها أنه لا يملك شيئا ؟.. إنه صالح .. صالح نفسه الذى تزوجته لم يتغير .

ثم دس فى لهجته رنة عميقة وهو يقول :

ـ هو نفسه صالح الذى قبلت أن تصلحه أنت عليها يا حضرة العمدة .. فهل يطلقها الآن لأنه لا يملك ما يصلحها به ؟

أحس العمدة تلك الرنة التى دسها الحاج إبراهيم ، وعرف أنه يقصد إلى تلك الفراخ التى كان مصيرها سيارة المأمور ، ولكن العمدة يغضى عن كل هذا الغمز ويقول :

ـ طيب يا حاج إبراهيم ، سنرسل الآن إلى أحمد أبى خليل ونرى إن كان يقصد إلى إثارة سعدية على زوجها ، أو أنها مجرد صدفة .

فقال الحاج إبراهيم :

ـ أى صدفة يا حضرة العمدة ؟ .. إنه يرسل إليها الرسل فى كل يوم .

وقال العمدة :

ـ سنرى يا حاج إبراهيم ، سنرى ..

ثم صاح مناديا :

ـ يا عبد الجليل .. يا عبد الجليل ..

وقبل أن يأتى عبد الجليل يصعد إلى الشرفة الشيخ حسن وابنه فخرى فيرحب بهما العمدة ، ثم يأتى عبد الجليل فيطلب إليه العمدة أن يرسل خفيرا إلى أحمد أبى خليل ليحضره . وينصرف عبد الجليل ويعود العمدة إلى الشيخ حسن :

ـــ مرحبا أبا فخرى .. تأخرت الليلة عن موعدك .. لعل المانع خير إن شاء الله ؟!

فيجيب الشيخ حسن فى فرحة غامرة :

ـــ خير وأى خير .. فخرى عاد بالسلامة اليوم ، وقد نجح فى الامتحان ونقل إلى السنة الرابعة .

ويصيح العمدة :

ـــ الحمد لله ، مبروك يا فخرى .. مبروك يا بنى .. يا ولد هات الشربات حلاوة نجاح فخرى .

ويقول فخرى فى تلعثم :

ـــ شكرا يا عمى .. بارك الله فيك يا عمى .

ويقول الشيخ حسن :

ـــ أطال الله بقاءك يا شيخ زيدان ، وأدام المودة بيننا ، وبارك لك فى درية وأبقاها .

وراح الجالسون جميعا يباركون لفخرى نجاحه . وبدأ الحاج على يسأله فى القانون ويناقشه فيه ، فانتهز الشيخ حسن الفرصة وقال للعمدة :

ـــ والله يا شيخ زيدان أريدك فى كلمتين على انفراد .

وقال العمدة :

ـــ تحت أمرك يا شيخ حسن ، بإذنكم يا جماعة .

وأجابت أصوات متباينة : « تفضل » . ودخل الشيخ حسن وراءه العمدة إلى الدوار ، حتى إذا استقر بهما المجلس قال الشيخ حسن :

ـــ الصداقة التى بيننا غنية عن الذكر ..

فقال العمدة :

ـــ معلوم .

فقال الشيخ حسن :

ـــ وقد عشت طول عمرى آمل أن اجعل من هذه الصـــداقة قرابة بيننا .

وفهم العمدة ما يهدف إليه الشيخ حسن فسارع يقول :

ـــ والله يا شيخ حسن إن الصداقة التى بيننا أقوى من كل قرابة .

وكاد الشيخ حسن يفهم أن العمدة غير متحمس لما سيعرضه عليه ، ولكنه قال :

ـــ ولكنى أتمنى أن تتقوى هذه الصداقة بيننا برباط شرعى .. اسمع يا شيخ زيدان .. أنا أطلب القربى منك .. أريد درية لابنى فخرى ، فما رأيك ؟

فقال العمدة متلجلجا :

ـــ ولكن فخرى .. فخرى .. أليس صغيرا .. وابنتى درية أيضا صغيرة .

فقال الشيخ :

ـــ والله لو كنت قلت عن فخرى إنه صغير وسكت لناقشتك ، أما قولك عن درية إنها صغيرة ، فمعنى هذا أنك ترفض يدى التى أمدها إليك يا حضرة العمدة .

فقال العمدة :

ـــ اسمع يا شيخ حسن .. ما مصير صداقتنا إذا أنا رفضت فخرى ؟ . أتراك تزعل ؟

فقال الشيخ حسن :

ــ أكون كاذبا لو قلت إننى لن أزعل .. سبحان الله ياحضرة العمدة .. بالطبع أزعل يا أخى .

فقال العمدة :

ــ صبرك يا شيخ حسن ، المسألة مستقبل بنتى ، وأنت تعلم ما اصنعه لأجعل لها ثروة تغرى بها ابن الحلال .. أريد لها شابا من الأغنياء يسعدها فى حياتها . فخرى شاب عظيم ، ولكنك يا شيخ حسن لا تستطيع أن تمده هو ودرية بما يهيىء لهما ما أرجوه لدرية .. إنك تفكر فى ابنك .. أيغضبك أن افكر فى ابنتى ؟

فقال الشيخ حسن :

ــ أنت حر فى أن تفكر فى ابنتك كما تشاء ، ولكنى أنا أيضا حر فى أن أغضب يا شيخ زيدان .. لقد علقت بالصداقة أملا لا تحتمله الصداقة .. فلا بأس .. ولو أننى بكلمة لا بأس هذه أقتل ثلاثين عاما من سنى حياتى .. ولا بأس أيضا فإننى لا أملك غيرها كلمة ... سلام عليكم يا حضرة العمدة ...

وخرج الشيخ من الغرفة إلى الشرفة فى خطوات سريعة غاضبة ، وعبر الجالسين وهو يقول :

ــ سلام عليكم يا رجال .. هلم يا فخرى .

وقام فخرى لا تكاد رجلاه تحملانه .. فقــد ادرك المعنى الذى تحمله خطوات أبيه السريعة وانصرافه المبــكر ، ولكنه لا يريد أن يصدق هذا الإدراك الذى لا يحتاج إلى كثير ذكاء .

وقال الحاج على :

ـــ الله .. إلى أين يا شيخ حسن ؟ .. ألا تشرب شربات ابنـــك ؟ .

فيقول الشيخ حسن وقد ابتعد عن الدوار :

ـــ لا عليك يا حجعلى ، اشربه أنت .. هنيئا إن شاء الله .

ويغوص الشيخ حسن فى تيه القرية ، وبعد حين يخـــرج العمدة ، ولولا غبش المغيب وقلة الضوء لتبينوا فى عينى العمدة احمرارا ما عهدوه قط ، ولتبينوا أيضا آثار دموع فاضت على وجه العمدة ، فأضفت حيث فاضت لألاء وبريقا يتألقان على جانبى وجه الشيخ الذى علاه غبار السنين .

وقال الشيخ رضوان للعمدة :

ـــ ما للشيخ حسن .. خرج وكأنه غاضب ؟ !

فقال العمدة فى صوت عميق :

ـــ لا .. أبدا .. وإنما كلفته بأمر ذهب يقضيه لى .

قال العمدة جملته وكأنما كان قد حفظها عن ظهر قلب ، ورددها كثيرا فى داخله قبل أن يقولها للقوم . وأدرك الجالسون أن العمدة لا يريد أن يفضى بشىء مما كان بينه وبين الشـــيخ حسن ، وإن كان الشيخ رضوان يأبى أن يصمت فهو يقول :

ـــ لقد رفض حتى أن ينتظر شربات ابنه .

وقبل أن يجيب العمد يكون أحمد أبو خليل قد جاء فيلقى السلام ، ولا يجيبه العمدة وإنما هو يجابهه قائلا :

ـــ ألم تجد غير سعدية المتزوجة لتحاول الزواج بها أيهـــا الضائع ؟

ويقول أحمد وقد ألقى على وجهه غشاء من البلاهة :

ـــ أنا يا حضرة العمدة ؟ .. سامحك الله يا حاج إبراهيم .
إن كان هذا لأجل الفدان فخذه بلا ثمن ...
فيقول الحاج :
ـــ يا ابنى حد الله بينى وبين فدانك هذا ... وإن كان فدانا فى الجنة .. أجب العمدة عما سألك عنه .
فقال أحمد :
ـــ أنا يا حضرة العمدة لا أصلح للزواج ..
فيقول العمدة ساخطا :
ـــ لعن الله الزواج وسنى الزواج .. اسمع يا ولد ، أقسم بالله العلى العظيم ، إن سمعت أنك ذهبت إلى الحارة التى فيها سعدية لأقطعن أسبابك بالقرية جميعا .. أتسمع ؟ ..
ويرتجف أحمد من هول الوعيد ، ويقول فى خشية :
ـــ أمرك يا حضرة العمدة ..
ويطرده العمدة فينصرف ، ويدهش القوم جميعا فإن المقدمات لم تكن مؤدية لهذه النتائج ، ولو دروا ما كان بين العمـــدة وبين الشيخ حسن لعرفوا أنها ثورة لم تجد طريقا لها إلا أحمد .. ولو كان صالح قد حل محل أحمد لباتت سعدية طالقا فى ليلتها تلك .
وقال الحاج إبراهيم :
ـــ وماذا يفعل صالح مع زوجته ؟ ... إنه لا يملك ما يصلحها به يا حضرة العمدة .
وكان العمدة فى هذه اللحظة قد يئس من أى خير يأتيـــه على يد صالح بعد أن عرف من الحاج إبراهيم ضيق يده ، كما

انه كان فى هذه اللحظة عزوفا كل العزوف عن المال والرشوة فقد شق عليه مصرع هذه الصداقة الطـويلة ، وقد أدرك أن الخنجر الذى صرعت به هذه الصـداقة لم يكن إلا المال الذى تكدس عنده والذى نفر عن صاحبه الشيخ حسن .. وهكذا ألمت به لحظة روحانية قلما تواتيه . فقال للحاج إبراهيم :

ـــ اسمع يا حاج .. اذهب إلى سعدية الساعة وقل لها إن العمدة يهددها إن لم تبت ليلتها فى بيت زوجها ، فإنه سيفعل بها الأفاعيل .. وقل لها أيضا إنه لا يريد أن يسمع بغضبها مرة أخرى .. ألم يعد لنا عمل إلا هى وزوجها ؟

ويقوم الثلاثة داعين للعمدة .

ويقوم العمدة إلى بيته .. وتلقاه زوجته فى بشاشة وابنته فى تنظر ، ولكنهما ما إن تريا وجهه حتى تصبحا كلتاهما حزينتين ، فأما الزوجة فلأن زوجها حزين ، وأما الابنة فلأنها تدرك ما كان .

وتسأل الزوجة :

ـــ مالك يا شيخ زيدان ؟ كفى الله الشر .

ويقول الشيخ زيدان :

ـــ جاءنى الشيخ حسن اليوم يخطب درية بنتى لابنه فخرى فرفضت ، فمشى غاضبا .

وقالت درية دون أن تحس :

ـــ لماذا يا أبى ؟

ونزع الأب من السؤال .

ـــ لماذا ؟؟ .. وأنت التى تسألين .. لماذا .. ؟ ألا تعرفين لماذا ؟

وتثوب درية إلى نفسها قائلة :

ـــ اقصد لماذا أغضبته يا أبى ؟

ويقتنع الأب نفسه بأن هذا هو ما قصدت إليه الابنة .

وتقول الأم :

ـــ فخرى طيب وابن حلال .. ولكنه فقير .

ويقول العمدة :

ـــ وهذا ما قلناه ..

وتقوم درية إلى غرفتها ، وتفتح شباكها ذا السور الحديدى وتطل على الباحة والذكريات ، والماضى الذى كان قريبا فأصبح بعيدا ، والشجرة التى أظلت وصار ظلها لهيبا ، والليل الذى كان نجوى فأصبح شقاء ...

لماذا يا أبى ؟ !

— ٧ —

الشيخ عبد الودود مأذون بلدة السلام رجل طويل القامة عريض المنكبين ، ليس بالسمين المفرط ولا هو بالهزيل الذى تأخذه العين ، جامد الوجه إن رأيته خيل إليك أن العاطفة لم تمر على وجهه فى يوم من الأيام ، يضحك إن ضحك بفمه يوسعه حسبما يقتضى سبب الضحك ، فإن اضطره الأمر إلى القهقهة خرجت من حلقه ولكنه أبدا لا يضحك من قلبه ، وإن حزن الشيخ عبد الودود فهو لا يحتاج إلى تعبير جديد يضفيه على سحنته ، فهى عبوس لا تحتاج إلى علامات أخرى لتكون حزينة .

والشيخ عبد الودود رجل نقى السريرة ، سريع إلى تصديق ما يسمعه تسهل مخادعته ، فإن القيت إليه مثلا أن إنجلترا قد احتلت لندن أسرع يقول لك : « سبحان الله . ! أهكذا .. ؟ ومتى كان هذا ؟ » فإذا أنت لم تبتسم وظللت تروى عليه كيف أن إنجلترا خدعت لندن وأوهمتها أنها تساعدها ، ثم احتلتها ولم تقبل أن تتركها أبدا ، راح يحوقل ويستعيذ بالله من الشيطان . وإذا أنت قلت له إن الإنجليز قد تدخلوا فى الأمر ، وأنهم الآن يحاولون أن يعقدوا صلحا بين إنجلترا ولندن ،

قال لك « والله يشكر الإنجليز » . وهكذا تستطيع أن تصل به إلى تصديق أية خرافة تلقيها عليه ، على شرط ألا تضحك وأنت تلقى هذه الخرافة . وهو يعلم فى نفسه هذه الطيبة ، ولذلك فهو حريص كل الحرص إن أنت حاولت أو حاول غيرك أن يتحدث معه فى أمر ينتهى به أن يخرج بعض المال من حزامه ؛ نعم حزامه وليس حافظته . إنك لا تحتاج إلى كثير ذكاء لتخدع الشيخ عبد الودود ، فلترو عليه ما شاء خيالك من خرافات فسيصدقها ، ولكنك — مهما يكن ذكاؤك — لن تستطيع أن تنال من الشيخ عبد الودود قرشا واحدا وإن كان هذا القرش ذاهبا إلى أمر فيه خير للشيخ عبد الودود نفسه ، فإن هذا الخير مهما يعظم أمره أقل شأنا وأهون خطرا من إخراج قرش كان قد استقر غير مفزع ، وهدأ غير قلق فى أموال الشيخ عبد الودود .

والشيخ عبد الودود — كما قد عرفت — يملك عشرة أفدنة يزرعها لحسابه الخاص ، لا يؤجر منها قيراطا ولا يزارع فى سهم منها أحدا . وإنما هو الذى يزرع ، ويكترى لها العمال بعد أن ينزل بأجورهم إلى أقل حضيض يمكن أن تنزل إليه . والشيخ عبد الودود — كما تعرف — مأذون البلدة ، وتلك مهنة ذات خطر وربح ، والبلدة — كما لا تعرف — عدة بلدان ، فإن للقرى عندنا ضواحى كثيرة تتبع البلدة الأصلية فى الحكم والمأذونية . وهكذا كان الشيخ عبد الودود ذا موارد ضخمة تنسكب عليه من الحب والكره ، والعجيب أن هذه العواطف التى كانت سبب نعمته لا تعرف سبيلا إلى قلبه أبدا . فقد

كان لا يعرف الحب لغير المال ، ولا يعرف الكره لغير إخراج هذا المال . المهم أن الشيخ عبد الودود كان يستقبل هذه الأموال جميعها مع ما تخرجه الأرض من محصول ، ثم يخرج لبيته ما يقيم الأود أو يكاد ، ويحتفظ بباقى المبالغ جميعها حتى تتم ثمن فدان فيشتريه .

وقد آن لنا الآن أن نروى قصة الحزام الذى عرضنا له فى أول هذا الحديث . فقد كان الشيخ عبد الودود يضع هذه الأموال فى حزام خاص يربطه حول بطنه ويلصقه به ما أمكن ، حتى يحسه دائما ، وحتى يظل واثقا من بقائه حيث هو ، وحتى لا تبتعد هذه الأموال عن جسمه . وهل كانت إلا جزءا من جسمه ؟ وقد صار هذا الحزام مشهورا فى القرية والقرى المجاورة شهرة الشيخ نفسه . لقد كان الشيخ عبد الودود حريصا كل الحرص على إلصاق هذه الأموال بكيانه ، لا يفصلها عنه إلا ذلك الجلد الذى صنع منه الحزام والذى لا يملك حيلة فيه . فلو كان مستطيعا أن يضع المال على نفسه بغير حائل من الحزام لفعل . وقد يرفع الشيخ عبد الودود الحزام عن نفسه مرة فى الشهر أو مرتين حين يستحم ، ولكنه — إن فعل ذلك — فهو إنما يفعله والحزام منه بمرصد ، فإنه إن سمح بأن يفارق الحزام جسمه فهو لا يسمح مطلقا بأن يفارق عينيه .

ومع هذا الخوف الراعد الذى يتملك الشيخ عبد الودود على أمواله ، نجد الشيخ فى عامة حياته شجاعا يخوض الليل الأسود والطريق المقفر بلا صديق ولا رفيق ولا حارس ، وإن

يكن هذا الخوض فى سبيل القرش الذى يكسبه من عقود الزواج والطلاق ، إلا أنها — على أية حال — شجاعة تحمد له . وقد بدأ هذه الشجاعة منذ عين مأذونا ، وقد قام برحلاته الأولى وهو لا يكاد يقيم خطواته من فرائص ترتعد به وهلع يهز فؤاده هزا .. ثم تعود الطرق المظلمة والليالى الحالكة فأصبحت العادة شجاعة ، وأصبح يقطع الطريق إلى أعمال البلدة وقراها المجاورة وحيدا بلا صديق ولا رفيق ولا حارس .

ولا يحسبن أحد أن هذه الأعمال قريبة من قرية السلام فإنها قد تبعد عنها كثيرا ، والطرق إليها وعرة لا تحيط بها إلا الحقول خلت من زارعيها بلا دور فيها ولا أناس ، وقد لا تخلو من العفاريت التى خلفها الوهم فى كثير من مناطق هذه الطرق .

ولكن الشيخ عبد الودود كان يقطع هذه المخاوف جميعها ليعقد زواجا أو يقرر طلاقا ، وحول وسطه الأموال تكدست مئات ومئات . وفى هذه الليلة خرج الشيخ عبد الودود من قرية السلام بعد صلاة المغرب مباشرة ، قاصدا إلى عزبة النمايلة الواقعة فى نطاق دائرة السلام إدارة ومأذونية . وكان خروجه هذا بناء على دعوة وافته قبيل العصر تطلب إليه أن يذهب إليها ليطلق اثنين كان قد زوجهما منذ خمس سنوات ، وكانت له فلسفته فى الطلاق تلك التى رواها العمدة لزواره . ولكن العمدة نسى أن يذكر العيب الوحيد فى الطلاق ، ذلك أن الشيخ عبد الودود يخرج من الطلاق غالبا دون أن يتناول العشاء الذى يتاح له فى الزواج دائما . ثم إن أجره فى الطلاق معلوم لا يزيد مليما عما قدرته له الحكومة ، والفلاحون أعلم

الناس بما تقدره الحكومة فى مثل هذه الأمور . أما فى الزواج فقد كان الشيخ عبد الودود يطمع إلى جانب العشاء أن يأخذ ما يزيد على أجره المعلوم .

خرج الشيخ من قريته قاصدا إلى الرجل الذى سيصب فى حافظته ، ومن ثم فى حزامه خمسة وعشرين قرشا ثمنا له على تطليق زوجته . وأخذ الشيخ يفكر فى زهادة المبلغ الذى يتقاضاه إزاء هذا المعروف الكبير الذى سيؤديه لذلك الرجل .. إنه سيخلصه من زوجته التى آذته ونكدت عيشته ، ثم لا يصيب من بعد إلا هذه الصبابة الضئيلة من المال . ولم يكن الشيخ يعلم — ولا يعنيه أن يعلم — إن كانت المرأة هى التى آذت الرجل المطلق أو أن الرجل هو الذى آذاها ، وإنما كل همه ذلك المبلغ الذى سيجرى إلى جيبه .

وبلغ الشيخ منزل الطلاق وراح يقول للزوج :

— إن أبغض الحلال عند الله الطلاق .

وراح يقول :

— تمهل واصبر وفكر ، وسأعود إليك غدا .

وهو فى صميم نفسه يتمنى الا يطيع الرجل نصائحه التى كان يلقيها إلقاء يجرى به لسانه فى موات ، فلا تبلغ شفتيه حتى تصبح غمغمة غير مبينة يكاد السامعون — لولا سابق العلم بها — الا يفهموا منها شيئا .

ويصر الرجل على الطلاق كما قدر الشيخ عبد الودود ، ويأخذ الشيخ الخمسة والعشرين قرشا ويترك البيت بلا عشاء — كما قدر أيضا — ويأخذ سبيله إلى قرية السلام .

الليل أسود والطريق طويل مقفر ، ولكن الشيخ عبد الودود يسير يفكر فى هذا المبلغ الجديد الذى أضافه إلى ثروته ، والذى لم يأخذ طريقه بعد إلى الحزام ، فقد تعـود ألا يضيف إلى الحزام دخله الجديد إلا فى البيت . وراح الشـيخ يحسب وما كان محتاجا لحساب ، ولكنه يلتذ التفكير فى المبـلغ الذى يرتفع كل لحظة فى حزامه .. راح يحسـب .. لقد كان معه سبعمائة وخمسة وعشرون جنيها وخمسة وعشرون قرشـا . والآن حين يصل إلى البيت ، سيصبح بالحزام سبعمائة وخمسة وعشر ...

— قف .

صوت انبعث من الليل واضحـا جليا ، ولكن الشـيخ لا يصدق أذنيه ويهم بالمسير بعد أن توقف هنيهة ، ولكن الصوت يعود مرة أخرى !

— أقول قف .

ويقف الشيخ لأنه أصبح لا يستطيع المسير ، وفى همهمة لا يفهمها هو يقول :

— من ؟

— عفريت .

— عفريت ؟

— نعم .

— بسم الله الرحمن الرحيم .. الله لا إله إلا هو ...

ويصل إلى قفا الشيخ حديد صلب بارد ، ويزداد التصاق

الحديد بقفا الشيخ فيحس عينى بندقية ملتصقة بشدة إلى قفاه كما يلتصق الحزام بجسمه ، ويرتفع صوت الشيخ :

ـــ الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا . .

ويأمر الصوت الممسك بالبندقية فى صوت خفيض حازم :

ـــ اخرس .

ـــ حاضر .

ـــ هات .

ـــ ماذا ؟

ـــ نقودك .

ويغمغم الشيخ قائلا :

ـــ ليلة سوداء . . عفريت أم لص ؟

ـــ ومالك أنت ؟

ـــ إنه مالى والله العظيم .

ـــ إذن هاته .

ـــ كانت العفريت ارحم .

ـــ أسرع .

وتومض فى راس الشيخ فكرة رائعة ، لم لا يعطى هــذا الرجل حافظته التى لا تحمل غير خمسة وعشرين قرشا وثلاثة قروش كانت فيها قبل ان يخرج من البيت ؟ والرجــل لن يعرف من أمر الحزام شيئا فتصبح المصيبة هينة . وأين ثمانية وعشرون قرشا من سبعمائة و . . وقبل أن يكمل الشيخ تفكيره يصيح به حامل البندقية وقد اصبح فى مواجهته :

ـــ أسرع .

ونظر الشيخ مليا فى اللص الذى يهدده فلم يتبين منـــه فى غبش المساء غير وجه يحيط به اللثام من جميع نواحيه ، وقـــد حمل بندقية قصيرة مقروطة ووضع فوهتها فى صدر الشيخ ، وعاد اللثام يقول :

ــ أسرع .

وأخرج الشيخ حافظته وهو يقول فى تظاهر بالحزن :

ــ تفضل !

ويأخذ اللثام الحافظة ويمد يده مرة أخرى :

ــ أسرع .

ــ ماذا ؟

ــ هات .

ــ ماذا ؟

ــ الحزام .

ــ الماذا ؟

ــ الحزام .

ــ اى حزام ؟

ويمد اللثام يده إلى بطن الشيخ عبد الودود ، ويضع يده من فوق الجلباب على الحزام .

ــ هذا الحزام .

ــ يا ابنى اتق الله ..

ويدفع اللثام المقروطة فى صدر الشيخ وهو يقول :

ــ أسرع وإلا قتلتك .. أسرع .

ــ يا أخى حرام .. حرام .. خذ نصفه ما به .



ـــ هات الحزام .. هات الحزام قلت لك .

ومد اللثام يده إلى جلباب الشيخ عبد الودود وجذبه منه جذبة قوية ، شقت الجلباب عن قميص أبيض أصبح هو الحائل الوحيد بين الحزام وبين يد الرجل .

ـــ هات الحزام .

وتمالك الشيخ عبد الودود نفسه بعض الشيء وهو يقول :

ـــ والله يا بنى أنا لا أستطيع أن أعطيك الحزام بيدى ، خذه أنت إن شئت .

ـــ فارفع هذا القميص .

ـــ لا أستطيع يا ابنى .. يدى لا تقوى .

ويمزق صاحب اللثام القميص أيضا ، ويفك أربطة الحزام فيخلص إليه ، فيدفع الشيخ بعيدا عنه ويصيح فى وجهه :

ـــ امض .. اذهب الآن .

ـــ اذهب ؟

ـــ أسرع .

يقولها ويطلق عيارا فى الهواء فينكفىء الشيخ من الرعب ، ولكن قدم صاحب اللثام تعاجله بركلة فيقوم مهرولا طريقه إلى البلدة ، ينكفىء فيحس قدم اللص التى ركلته فيقوم ثم ينكفىء ، ويقوم حتى يدخل البلدة ذاهلا هلعا يتكفىء لا يسمع حتى تلك الأعيرة التى تعالت متكاثرة بعد العيار الذى أطلق لإخافته . فقد ظن الحراس أن هذا العيار قد أطلق لإيقاظهم ، وراحوا يظهرون مقدار يقظتهم بأعيرة عالية الصوت تجاوب صداها فى وسيع الفضاء .

- ٨ -

رجع المشايخ الثلاثة من عند العمدة وقد أذهلتهم فى ليلتهم تلك أمور كثيرة . عجبوا أول ما عجبوا من الحاج إبراهيم وغضبه ، وقد تعودوا أن يمزحوا معه فى شأن هذا الفدان وتعود هو مزاحهم ، وكان يقبله لأنه لا يمس حقيقة نفسه ، فقد كان يدرى أن يده لم تمتد يوما لغير الحق ، وقد كان يحسب إخوانه يدركون أنه لن يرضى لنفسه إلا هذا الحق الذى ألزم به نفسه . ولكنه حين رأى مزاحهم يلقى فى مواطن الجد ، اتخذ هذا الموقف الحازم وألزمهم حدا يقفون عنده . وعجبوا من إقبال الشيخ حسن الضاحك المستبشر ثم انصرافه الغاضب العجلان ، ثم عجبوا من ثورة العمدة بأحمد أبى خليل ، وميله إلى صالح بعد أن عرف فقر صالح وعسر يده ، ومع تمام علمه بغنى أحمد وكرمه إذا اقتضى الأمر كرما . وراحوا يتساءلون فى أنفسهم أهى غمزات الحاج إبراهيم حركت فى العمدة بقية عفة ، أم أن العمدة غاضب الشيخ حسن فضاق صدره وأفرغ غضبه على أحمد . . أيا كان الأمر فقد مشى ثلاثتهم صامتين يدير كل منهم الأمور فى رأسه ولا يبين عنها .

وعلا ضجيج النساء من حولهم فازداد صمتهم ، فليس

لأمسيات الصيف فى الريف سكون ، فثمة الكلاب النابحة تتناوب النباح كأنها موكلة بالسكون ألا يسكن ، فإن مرت هنيهة لم يجب فيها كلب كلبا علا نقيق الضفادع وتصاعد من كل أقطار الأرض ، فيخيل إليك أنها تعيش فى البيوت والطرق والحقول وكل مكان ولا تقصر سكناها على الترع ومواطن الماء ، وقد يطيب لها من حين إلى حين أن تقطع ضوضاءها طفرة واحدة ، ومن ثم تتبين صوتا منفردا كان يخالط أصواتها فيكونان معا نغما واحدا تعوده أبناء القرى ويضيق به زوارها . إن صمتت الضفادع صات هذا الصفير وحده ، فهو صفير تسلخت نغماته ودقت فما فيه من حلاوة الصفير شىء . إنها الصراصير تشارك فى العدوان العنيف على سكون القرى .

وكان المشايخ الثلاثة غارقين فى صمتهم تصل إليهم هذه الأصوات فلا يحسون من أمرها شيئا ، فهى توافيهم مع غروب الشمس فهم قد عودوها كما عودوا أن تغرب الشمس فيحل المساء ، ولكن صوت طلق نارى اندفع إلى آذانهم غير بعيد وغير قريب أيضا ، ثم تبعه طلق ثان فثالث فرابع ، فتضاحك الحاج على وقد انتوى أن يقطع صمتهم الذى طال به الأمد :

— يا أخى أولاد الكلب هؤلاء لا يكفون عن إطلاق النار فى الهواء ، فإن هاجمهم لص ولوا الفرار .. أتراهم يحرسون القطن من الهواء الذى يصوبون إليه أعيرتهم ، والله صدق من قال :

وإذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا

فقال الشيخ رضوان :

ـ يا أخى أنت لا يسلم أحد منك أبدا .. هل أنت مسحوب من لسانك يا أخى ؟ .. وماذا فعل بك هؤلاء الخفراء أيضا ؟ إنهم ينبهون بعضهم بعضا حتى إذا جاء اللص ...

فقاطعه الحاج على قائلا :

ـ يفرون جماعة .

ـ يا رجل حرام عليك .. أنت حاج !!

ـ وما دخل الحج بهذا .. ؟ !! أكنت حججت حتى لا أقول الحق ؟

ـ أى حق ؟

ـ حقك على .

ـ وأنا مالى حقى أو حقك .. أتراك فرغت من الخفراء وتريد أن تستدير إلى .

ـ لا والله ، ولكنى أعرف أنك تحمل لى بعض الغضب فى نفسك منذ النقاش الذى دار بيننا عند العمدة ، وأنا غلطان .

ـ النهاية يا حجعلى .

ـ لا تكن غضوبا .. أنا غلطان .. أنا غلطان لك وللحاج إبراهيم .

وحينئذ أجاب الحاج إبراهيم فى شىء من عدم المبالاة :

ـ يا سيدى العفو ، لا غلط ولا يحزنون .

فقال الحاج على وقد لطف من صوته بعض الشىء :

ـ والله ما كنت أعلم أنك ستغضب كل هذا الغضب ، فقد تعودت أن أمازحك بشأن هذا الفدان .

فقال الحاج إبراهيم :

ـ المزاح شيء والجد شيء .. النهاية سأترككم هنا لأذهب إلى البنت سعدية وآخذها إلى بيت زوجها .

فقال الحاج على :

ـ وستأتى بعد هذا إلى الدكان .

فقال الحاج إبراهيم :

ـ سأرى .

فأقسم الحاج على عليه أن يأتى ، وراح يكرر له الاعتذار بعد الاعتذار حتى لان جانبه ووعده ان يلحق بهما . ثم تركهما وحاد إلى طريقه ، وأكملا هما طريقهما إلى الدكان وما كادا يجلسان به حتى أقبل إليهما احمد أبو خليل ، وما إن رآه الشيخ رضوان حتى همّ بالقيام فإذا احمد ينكب على يده يقبلها .

ـ لماذا يا عم الشيخ رضوان ؟ ماذا فعلت لك حتى تغضب علىّ كل هذا الغضب ؟

فلوى الشيخ رضوان رأسه عن محدثه ، وقال الحاج على :

ـ كيف تسأل ؟ ألا تعرف ؟

فقال احمد :

ـ ليس بينى وبين عمى الشيخ رضوان شيء .. إلا إذا كان غاضبا ، لأنى سألته عن صحة حديث لم أكن متأكدا منه .. ثم تأكدت أنه صحيح وارد فى صحيح البخارى .. فهل حرم السؤال يا عم الشيخ رضوان ؟ .

فقال الشيخ رضوان فى خيلاء أن وضح علمه بعد أن كان الحاج على ينكره عليه وقال :

ـ يا بنى مالك وللعلم .. ؟!

فقال الحاج على :
ـــ أوجدت الحديث فى البخارى ؟
فقال أحمد :
ـــ أى نعم ؟
فقال الحاج على :
ـــ ونعم يا ابنى بالعلم .
فقال أحمد :
ـــ وهل يستغنى أحد عن العلم يا عم الشيخ رضوان ؟
فقال الشيخ رضوان :
ـــ النهاية ، غفر الله لكَ .
وسألَ أحمد الحاج على :
ـــ فأين عمى الحاج إبراهيم ؟
فقال الحاج على فى مزاح قريب من الجد :
ـــ ابعد عنه .. لم تعد بينكما صلة منذ اليوم .. لقد أقسم طلاقا ثلاثا الا يشترى منكَ فدانكَ مهما يكن ثمنه .
فنتر أحمد يده وقال استهتار :
ـــ يا عمى صل على النبى .. غدا يجد الف شيخ وشيخ يؤكدون أن يمينه غير محرجة ولم تقع ، وأن لا بأس عليه أن يشترى الفدان ما شاء له الشراء .
وهنا صاح الشيخ رضوان فى غضب :
ـــ أى مشايخ تعنى يا ولد ؟
فعاد صوت أحمد إلى سابق جده :
ـــ أستغفر الله يا عمى الشيخ رضوان .. إنما أقصد المشايخ

أصحاب المصالح الذين يبيعون ذمتهم لمصالحهم .. مثل الشيخ عبد الودود وأمثاله .

وهدأ الشيخ رضوان وضحك لأحمد . ولكن الحاج على قال :

ـــ لا والله ما أظن الحاج إبراهيم إلا صادقا فى يمينه وفى نيتـــه .

فقال أحمد :

ـــ والله ما صادق إلا أنت يا عمى الحاجعلى .. إنما أنت رجل نقى السريرة صافى النفس .. النهاية .. ما الذى أثار على العمدة هذه الثورة .. ؟ ! أكل هذا من أجل الحاج إبراهيم ؟ أتراه جازت عليه حيلة اليمين بالطلاق فاعتقد أن الحاج إبراهيم صادق فيما ذهب إليه من أننى أغازل سعدية .

فقال الحاج على :

ـــ والله أنا أرى فى الأمر سرا ، وخاصة بعد أن صارحه الحاج إبراهيم بأن صالحا لا يملك شيئا .. فغضبه كان وهو يائس من صالح كل اليأس .

وقال الشيخ رضوان :

ـــ والله العمدة رجل طيب وابن حلال ، وقد رأى أن الاعتداء على الحرمات أمر لا يجوز .

فقال أحمد :

ـــ الله يشهد ما اعتديت أبدا .

وقال الحاج على :

ـــ إنه رجل طيب فعلا ، ولكن اسعاره غالية جدا .

فقا ل الشيخ رضوان :

ــ يا رجل اتق الله .. أغلب العمد على هذه الحال .

فقال أحمد :

ــ والله لقد كنت مستعدا له استعدادا ضخما ، ولكنه قطع رزقه بيده .

فقال الشيخ رضوان :

ــ ولماذا كان استعدادك ، لابد أنك كنت تنوى شيئا .

فقال الحاج على :

ــ ارحم الولد يا شيخ رضوان ، فقد أعد لك هدية عظيمة .

فقال الشيخ رضوان :

ــ إنى أقول الحق وأمرى لله .. العمدة كان محقا الليلة .

فنظر أحمد إلى الحاج على مستنجدا ، فقال الحاج على :

ــ أكل هذا لأنه أوصى بك لتبقى معلما فى القرية ؟ .. قل لى بذمتك كم دفعت له من أجل هذه التوصية ؟

فقال الشيخ رضوان :

ــ لا شىء وأقسم بالله العظيم .. بل إنه ..

وقطع الشيخ رضوان جملته فى حين أكملها الحاج على :

ــ نعم .. نعم .. بل إنه زاد مرتبك كخطيب للجامع .. وما عليه أن فعل .. عشرة أفدنة موقوفة على الجامع يأخذ ريعها جميعه ولا يدفع إلا أجرك ..

فقال الشيخ رضوان :

ــ يا رجل اتق الله ..

فقال الحاج على لأحمد :

ـــ واين هديتى يا سى احمد ؟

فقال أحمد :

ـــ تحت الأمر والإذن يا عمى الحاجعلى .

فقال الشيخ رضوان بصوت فيه دلال :

ـــ أى هدية يا ولد ؟

فقال أحمد وقد أحس أن مطلبه فى يده :

ـــ هدية على ذوقك يا عمى الشيخ .. قطعة حرير قفطان لا مثيل لها ..

فقال الشيخ رضوان مسرعا :

ـــ هديتك مقبولة يا أبا خليل .. والله إنك رجل طيب وابن حلال يا سى أحمد .

فقال أحمد وقد غمره الفرح :

ـــ انت الخير والبركة يا شيخ رضوان .. وما هذه الهدية .. ؟ ! البهدية الحقيقية ستراها عندما يتم المطلوب بإذن الله .

فضحك الشيخ رضوان وقال من خلال قهقهته :

ـــ وما هو المطلوب يا ترى ؟

فقال أحمد فى صوت أسيف جاد :

ـــ هل يرضيك يا عم الشيخ رضوان أن تعاشر زوجة زوجها وهى تكرهه أشد الكره ؟ وهل يرضيك ويرضى الله أن تعاشر زوجة زوجها وهو لا يقدم لها ما يقوم ببيتــه ؟ وإنما يلقى ثى

يدها بضعة قروش ضئيلة فى كل موسم ولا يحضر لها ما يكفيها من الذرة ، ويأمرها أن تعمل طول يومها إن لم يكن فى جمع القطن فهو يأمرها بأن تخبز للناس خبزهم لقاء بضعة أرغفة ، فتظل ـــ وهى الفتاة فى ربيع العمر ـــ بين الدور والحقـــول شردة ، ولو كانت تحب زوجها لهان الخطب ، ولكنها تكرهه يا عم الشيخ رضوان ولا تطيق أن تراه .. ارحمها يا عم الشيخ رضوان .. ارحمها الله .

فقال الشيخ رضوان :

ـــ وماذا يمكن أن أفعل يا أحمد ؟

فقال الحاج على :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله يا شيخ رضوان ، إننا نحن من نفعل .. وما فائدة صداقتنا للعمدة إن لم نستطع أن نقـــوم بمسألة صغيرة مثل هذه ؟

فقال الشيخ رضوان :

ـــ النهاية يا بنى ، ربنا معنا .

فقال أحمد :

ـــ أطال الله عمرك يا عم الشيخ رضوان .. وبارك ..

وقبل أن يتم جملته دخل إلى الدكان الحاج إبراهيم الحسينى ، وما إن يرى أحمد حتى تعود إلى وجهه تلك الغمامة التى خرج بها من عند العمدة ، ويلقى الحاج إبراهيم تحية ما إن سمعها الثلاثة حتى أدركوا ما بنفس الحاج من ضيق ، ولم يسكت الحاج عند ذاك بل هو يقول :

ـــ ماذا ؟ ألم تجدا إلا هذا الولد لتسامراه ؟

وقبل أن يجيب أحد سارع أحمد قائلا :

ـــ ماذا فعلت لك ياعم الحاج إبراهـــيم ؟ .. إن كان عن الفدان ..

فقاطعه الحاج إبراهيم قائلا :

ـــ ألم يخبرك صديقاك أننى أقسمت يمين طلاق ألا أشترى هذا الفدان مطلقا ؟

ـــ ومع ذلك أنا تحت أمرك ، أنا والفدان وكل ما أملك . ولكن لماذا أنت غاضب علىّ ؟

ـــ يا ابنى أنا أغضب على كل إنسان لا يراعى الله فى أعماله .

ـــ وأنا ماذا فعلت لك ؟

ـــ فعلت ما فعلت والسلام .

ـــ والله يا عم الحاج إبراهيم إنك لو عرفتنى على حقيقتى لوجدتنى كما تحب . فأنا كريم ويدى مفتوحة ، وخـــدام الأصدقاء ولا أبخل مطلقا .

ـــ يا بنى الكريم كريم على نفسه .

ـــ وعلى أصدقائه أيضا يا عم الحاج إبراهيم .

ـــ لا يهمنى يا بنى كرمك أو بخلك .

وهنا قال الحاج على :

ـــ ماذا يا أحمد ؟ . أتظن أن الحاج إبراهيم يهمه كرمك ؟

فقال أحمد :

ـــ لا والله ، فإنى أعرف الحاج إبراهيم منذ أنا طفل صغير ، ولكن بودى أن يقبل الهدية التى أعددتها له .

فقال الحاج إبراهيم فى غضب حاول جهده أن يكبته :

ــ أنت يا ولد تحاول رشوتى .

ــ حد الله بينى وبين ذلك يا عم الحاج إبراهيم ، وإنما أقدم إليك هدية صداقة وصلح بيننا .

فقال الحاج إبراهيم وغضبه مكبوت ما زال :

ــ اسمع يا حجعلى ، لقد ألححت علىّ أن أحضر إليك وقد جئت حتى لا تغضب ، ولكن إن كنت قد جئت بى لأهان فى مجلسك ، ولأرمى بأننى لص يرشونى مثل هذا الغلام ، فاسمح لى أن أقوم .

وقبل أن يجيب الحاج على سارع أحمد قائلا :

ــ لا تغضب يا عم الحاج إبراهيم فإنى أنا الذى سأنصرف ، ولكن الذى أعرفه أن الهدية تسمى رشوة إذا كان مقدمها يريد أمرا عند من يقدمها إليه ، ولكننى لا أريد منك شيئا .

ــ لعلك لا تريد شيئا ، ولكنك تريدنى أن أغض عينى عنك ولا أرفعها ، وكيف يمكننى أن أرفعها وقد خفضتها بهديتك ... لا يا بنى ، أنا رجل كبير وأخلاقى تكونت ، ولم يعد فى الإمكان تغييرها .. لا يا بنى لا .. أغنانى الله عن هداياك .

ــ أمرك يا عم الحاج إبراهيم .. أمرك .. سلام عليكم .

وقبل أن يخرج أحمد من الباب تدخل إلى الجمع امرأة عرفها الجميع ، فتصايحوا بين ترحيب وعجب أن تقصد إليهم زوج الشيخ عبد الودود وما تعودوا أن يروها فى غير دارها ، وقد اتخذت من الثياب ما تواضعت النسوة على ارتدائه إن هن

أزمعن أن يلتقــين بالرجال أو يخــرجن إلى الطــريق ، فهم لم يروها إلا فى ثيابها السوداء مسدلة عليها حتى أخمص قدميها وقد ألقت على رأسها خمارا ، أما الآن فهى تطالعهم وقد ارتدت جلبابا ملونا فاقع الحمرة نبتت فيــه ورود خضراء ، واتخــذت على رأسها منديلا قلق المكان . فقد كان وجهها أصغر من أن يسع هذا الذعر الذى ألقى عليه ، فامتد هذا الذعر إلى منديلها بل إلى جلبابها المنتفض .

— أدركونى .

— خير يا أم إسماعيل ؟

— الشيخ عبد الودود .

— ماله ؟

— لا أدرى .

— ماذا تعنين ؟

— كنت أنتظره فإذا هو يدفع الباب ، ثم ينكفىء على وجهه وهو يقول .. سرقنى ، ضربنى ، المقروطة ، الحزام ، سبعمائة وخمسة وعشرون جنيها وخمسة وعشرون قرشا ، والمحفظة وثمانية وعشرون قرشا ، سرقنى .. فرحت أربته وأحاول أن أهدىء من ثائرته ، ولكن الذى تملكه يأبى أن يزول عنه ، ثم قال فجأة : اذهبى إلى دكان الحاجعلى واطلبى إلى الحاج على والشيخ رضوان والحاج إبراهيم أن يأتوا إلى .

فقال الحاج إبراهيم :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله ، هلم يا رجال .

فقال أحمد أبو خليل :

— هلم .

فقال الحاج إبراهيم :

— وانت إلى أين ؟

— معكم .

— لا إن الرجل لم يطلبك وما أظن الزيارة مناسبة فى مثل هذه الحال . . سنذهب نحن الذين طلبنا .

— أمرك .

وخرج القوم من الدكان ، وساروا طريقهم بعد أن أقفل الحاج على أبواب دكانه .

وما إن بلغوا بيت الشيخ عبد الودود حتى تقدمتهم زوجه إلى مكان زوجها ، وهناك التقوا بالرجل لم يبق منه إلا ذعر وألم .

وقص عليهم الشيخ عبد الودود ما كان من أمره وأمر اللص فى كلمات لا تكاد تكتمل وهى تخرج ، وإنما هو يقف فى منتصف الكلمات وقد بدأ عليه انه يريد أن يلقى بحمله إلى أى إنسان ، ولكنه بعد أن يفرغ من القصة ويضع يده على موضع الحزام يحس بحمله كاملا لم ينقص . . بل لعله زاد . . !!

ولم يصبر الحاج إبراهيم بعد أن فرغت القصة بل هو يقوم إلى العمدة يوقظه ، ولا تلبث البلدة أن تصبح كلها فى يقظة كاملة ، فجميعهم مشغول ولا شغل ، وإنما هم يروون ما سمعوه ويزيدون عليه ما امتد بهم الخيال ، ولم يأت وكيل النيابة حتى

أصبح المبلغ المسروق من الشيخ عبد الودود سبعة آلاف جنيه ، وأصبح الشيخ عبد الودود بلا يد بعد أن قطعها اللص ، وبلا عقل بعد أن سلبت النقود عقله وهى ترحل عنه إلى اللص الذى هاجمه .

وجاء وكيل النيابة ومعه مأمور المركز ، فقـد كان قطـع الطريق أمرا تهتز له اركان الأمن . وبدأ وكيل النيابة التحقيق بينما بدأ المأمور مساوماته مع العمدة عما سيقدم للعشاء وللفطور ، فإن التحقيق سيطول إلى الصباح .

وانتهى التحقيق بقيد السرقة مع كل الظروف المشددة التى لازمتها ، من ظرف الليل إلى استخدام السلاح إلى غير ذلك .. كل ذلك قيد ضد مجهول .

وبهذا القيد بدأت فى القرية فترة جديدة من الزمان لم ترها فى ماضى أيامها ، ولم تفكر فى يوم ما أنها ستلتقى بها على طريق الحياة .

— ٩ —

كان الليل قد خيم على القرية . فلا يقطــع ظــلامه إلا نار تحلق حولها القوم يعدون فيها جذوة الفحم التى لا تصــلح الجوزة إلا بها ، وقد يعدو على ظلام الليل بصيص من ضـــوء المصباح يتسلل من شباك إحدى الدور ، فيمر بالظلام يكاد الظلام لا يحسه من فرط الضعف الذى يعانيه .

مرّ كمال بهذا الظلام وبهذه الخيوط المتهافتة من بصيص المصابيح ، يعبر كل شىء إلى ظاهر البلدة حيث يربض بيت النمرود ، وكان قد انقطع عنه أياما كثيرة فرغ فيها إلى المقروطة يستثمرها فتدر عليه المال الوفير . حتى إذا استولى الرعب على القرية والقرى المجاورة أحس أنه قد آن له أن يقطع إجرامه بعض الشىء حتى يعود إلى الناس بعض اطمئنانهم ؟ فيعــود إليهم هو فى غفوة من هذا الاطمئنان فينال ما تصبو إليه نفسه . . خطة كان قد رسمها منذ أمد بعيد فهو ينفذها لا يحيد عنها قيــد شعرة .

فإنه حين أصاب مبلغ الشيخ عبد الودود لم يكتف به ، بل أنه فى الليلة التالية مباشرة ، هاجم عبد الرحمن افندى السلامى الرجل الذى ينافس العمدة على المنصب ، والذى يملك فى القرية

عشرين فدانا ، والذى لا يحمل فى جيبه أقل من مائتى جنيه ويودع البنك مئات أخرى . وقد كان يحمل هذه الجنيهات ليباهى بها الناس كلما اجتمع حوله الناس ، فما كان له شىء يباهى به إلا هذه الأموال .

وكان كمال قد عرف أنه قد ذهب إلى القاهرة وانه سيعود إلى القرية عند المساء ، وكان يعلم أنه يقطع الطريق وحده من المحطة إلى القرية ، والطريق من المحطة إلى القرية محفوف من آحد جانبيه برمال الصحراء وتلالها .

وكان هناك تل يعرفه كمال ، ومن وراء هذا التل خرج كمال وقطع الطريق على عبد الرحمن ، فأصاب منه فى ذلك اليوم المائتى الجنيه التى تعود أن يضعها فى جيبه ، وأصاب منه جنيهن وقروشا هى بقية جنيهات خمسة انتهبت الخمر وتذكرة القطار منها ثلاثة جنيهات إلا قليلا .

وهكذا وقعت الحادثة الثانية فى موعد لم تنتظر القرية ان تقع فيه ، فما عودوا أن تقع حادثتان على شخصين فى القرية فى ليلتين متتاليتين .

وقيدت الحادثة ضد مهجول .. !!

وفى الليلة الثالثة كان الخواجة استاورو تاجر القطن خارجا من القرية فى طريقه إلى القطار الأخير . وكان الليل أسود ولكن الخواجة كان مطمئنا لأن خفيرا نظاميا من قبل العمدة كان يرافقه . ولكن الخفير النظامى كان أكثر جبنا من الخواجة حين وضعت المقروطة فى ظهره ، وحين طلب كمال من الخواجة



ان يعطيه ما يحمل من المال . وتسلم كمال المال وأمر الخــواجة وحارسه أن يعودا أدراجهما إلى القرية ، وأطلق خلفهما عيارا جعل الأعيرة تنطلق من الخفراء ، وجعل سكان السلام يطمئنون إلى أن الأعين من حولهم يقظة مفتحة ، تحيطهم بالأمن الراصد وبالسلاح القاتل لكل من يحاول ان يعدو عليهم ، وما عرفوا أن هذا العيار إنما كان إعلانا عن جريمة ثالثة تقع فى الليلة الثالثة .

... ما عرفوا ذلك إلا حين عاد الخواجة استاورو مع الخفير ، وقد أخذ الهلع بمجامع الخفير بينما راح الخواجة استاورو يهدىء من روعه ، فما كان يحمل غير خمسين جنيها وهى أقل من أن يفقد رجل مثل الخفير حياته من أجلها ، فقد كان يوشك من الخوف أن يموت .

كان كمال قد أعد الخطة بدقة . ومن ذلك الذى يظن أن قرية واحدة يعتدى على ثلاثة منها فى ثلاث ليال متوالية ؟

وقيدت الحادثة ضد مجهول ...

وهل كان كمـــال إلا مجهـــولا ؟ ومـــن ذلك الذى يظن أن كمالا يستطيع أن يعتدى ، وهو من عاش عمره مرعى للاعتداء ، وموطئا للهوان ، وصوتا أجوف يشيع ميتا أو يزف عروســا ؟ وفى هذا المجهل ، وفى هذه الزاوية المتوارية عن الأعين ، وفى هذه الغمرة من حقارة الشأن ، كان كمال قد أعد الخطة وانتفع بكل شىء ، حتى بهذا الاحتقار الذى كان يتمتع به ، فقـــد كان يتوارى فى هذا الاحتقار بعد كل جريمة فلا يفكر أحد فيـــه ،

وتقيد الحادثة ضد مجهول . فقد كان جبابرة الليل فى القــرية فى مكانهم عند كل حادثة ، وكان الجميع يرونهم حين تأتى إليهم أنباء الحوادث فيجدونهم مذهولين معهم . ولا مجـــال لشك فى صدق ذهولهم فقد كانوا معهم .

وإن خطر لواحد ممن كان يراهم ومعهم كمال أن يســـأل عن كمال أين هو ؟ انبعث أحدهم قائلا فى صوت من يضيق بالإجابة على تافه الأمور فى وقت لا يتفق مع هذه التفاهة : « إنه مريض . لقد أرسل إلينا وطنية تخبرنا بذلك منذ أيام . . . » .

ألم أقل لك إنه كان قد أعد الخطة فأحكم إعدادها ؟ لـم يغفل عن صغيرة منها منذ ذلك اليوم الذى أمل فيه أن يستولى على سلاح .

انتظر كمال بعد هذه الحادثة الثالثة يومين آخرين لم يخرج من بيته أبدا . وهو حتى فى أيام الجرائم الثلاث كان لا يترك بيته ، إلا ريثما يتم جريمته ثم يعود .

وقد رأى أنه يكفى للمرض خمسة أيام ، ورأى أنه لابد له أن يرى الدفراوى والنمرود ونورا والزهار ، فإن له معهم شأنا فى ليلتهم تلك . أى شأن ! .

مشى كمال يفكر فيما كان من أمره وفيما سيكون منه ، ولكن هينمة أقل ارتفاعا من ضجة الكلام وأعلى خفوتا من الهمس قطعت عليه تفكيره .

نظر كمال إلى مبعث تلك الهينمة فرأى موكبا صغيرا يسعى فى الطريق مارا بين أكوام السماد ، وما لبث أن تبينه على ضوء

نار بلغها فاتضح له عن درية تسير إلى جانب فاطمة ، وقد تقدمهما خفير نظامى يشرع البندقية إلى الفضاء . ووقف كمال دون أن يعرف سببا لوقوفه هذا ، أو لعله وقف دون أن يعلن إلى نفسه السبب الحقيقى الذى من أجله وقف . واقترب الموكب الثلاثى الصغير .

ـــ مساء الخير يا ستى درية .

ـــ مساء الخير يا كمال .

ومشى كمال خلف الركب دون أن تعلن نفسه إلى نفسه السبب الحقيقى الذى من أجله مشى .

ـــ خير يا ستى درية ، الدنيا ليل ولا قمر ، وأوشك الجو أن يكون باردا ، والحالة خطرة فى هذه الأيام . فإلى أين ؟

ـــ والله سأذهب إلى عمك الشيخ عبد الودود لأطمئن عليه ، ثم إلى عبد الرحمن افندى السلامى ، ثم إلى عبد المنعم الخفير فقد سمعت اليوم أن حالته خطرة .

ـــ أطال الله عمرك يا ستى درية .. وتعودين بعد ذلك إلى البيت ؟

فترددت قليلا قبل أن تجيب :

ـــ نعم .

ولما رأت فاطمة تردد درية وإلحاح كمال ، تدخلت فى الأمر حازمة .

ـــ الله .. ماذا جرى يا ولد .. ؟ أهى محاكمة .. ؟ امش .. اذهب إلى حالك .. مالكَ أنت وما لخروجنا أو عودتنا .. ؟ جاءتك داهية .. امشِ !!

وقال كمال وهو يبتسم ابتسامة العظيم الذى يتغاضى عن تطاول الأطفال جهلوا قدره :

ــ حاضر .. حاضر يا ست فاطمة .. انا ذاهب .. ولكن فقط قولى لحضرة العمدة الا يأمن على الست درية بخفير واحد .. اطلبى إليه أن يرسل معها خفيرين أو ثلاثة ، فقد ثبت ان الخفير الواحد عندما يلتقى باللص يصبح عادة أضعف من الشخص المسروق .. اليس كذلك يا عم فتحى ؟

وانتفض الخفير فتحى غاضبا ، والتفت إلى كمال الذى كان قد ولى الركب ظهره عائدا إلى سبيله الأول .. قال فتحى :

ــ امش يلعن أبوك ابن كلب .. ألم يبق إلا أنت يا ابن الضائعة لتتهكم على أسيادك .. يا تائه يا ابن الكلب يا طبال .. مصائب !!

بلغ كمال بيت النمرود ولم يلتفت إلى النيران التى تحلق بها القوم ، ولم يعنه ذلك البصيص الذى يحاول عاجزا أن يغزو الظلام ، فما كان يهتم بالضياء أبدا . كان يعرف طريقه بلا حاجة إلى هداية .. بلغ كمال مجلس الإخوان فلاقوه بترحيب بختلط بكثير من التواضع ، فقو تشوقوا إلى صيحاته المنافقة وإلى مجلسه منهم على الأرض حين هم على الأريكة يعد لهم الجوزة ، فيدخنونها دون أن يعانوا من إعدادها . تشوقوا إلى هذا جميعه ، وأحبوا وعلى رأسهم الدفراوى أن يظهروا له أنهم متواضعون يحنون على من كان مثله ، فرحبوا به . ولكنهم لم ينسوا مكانه منهم ومكانهم منه ، فكان ترحيبهم غارقا فى التواضع

الذى أحبوا أن يأخذوا به أنفسهـم فى لحظتهـم تلك . قال الدفراوى :

ــ والله لك مكان يا ابا كمال .

وقال الزهار :

ــ يدى تحرقت من الفحم يا ابن الكلب .. اقعد .. اقعد ورص .

وقعد كمال ، وراح جبابرة الليل يصلون من حديثهم ما قطعه دخول كمال ، قال منصور :

ــ مصيبة والله العظيم يا أولاد . قرية فيها منصور الدفراوى يعتدى على ثلاثة منها على ثلاث ليال متتالية ، ماذا حصل فى الدنيا ؟

ويقول الكحلة :

ــ والمصيبة الأدهى أننا ــ ونحن أولاد الليل ــ لا نعرف من الفاعل .

ويقول النمرود :

ــ أتظنه سيقفز من السماء ؟ لابد أننا نعرفه .

ويقول الكحلة :

ــ طبعا لابد أننا نعرفه ، وهل فى المديرية رجل لا نعرفه ؟

ويقول منصور :

ــ لا .. وخاصة أنه يبدو عليه أنه ثابت وذكى ، وولد يلعب بالبيضة والحجر ، وفاهم الشغل .

ويقول الزهار :

ـــ والله يا منصور لابد لنا أن نبحث عن هذا الرجل حتى نعرفه ، فإنه سيكون ذا نفع كبير لنا .

ويقول منصور :

ـــ والله يا ابنى لو انضم إلينا لاستطعنا أن نقيم الناحية على رجل .

كانت الجوزة تدور بيد كمال وهو صامت لا ينطق بكلمة ، وما عوده القوم صموتا ، ولكن جميعهم كان مشغولا بأنباء هذه الحوادث لا يلتفت أحد منهم من أمر كمال إلا إلى هذه الغابة التى يمدها إليه فيشهق منها بضعة أنفاس ، ثم يميل بها إلى الذى يليه .

قال الكحلة :

ـــ أى والله يا بنى ، وخاصة إذا علمته أنت كيف يعمل سلاحه وكيف يضرب به ، وأنت الرجل ذو اليد القاعدة التى لا تخيب ابدا .

وبدأ كمال يتكلم لأول مرة :

ـــ اسمعوا .

فقال النمرود :

ـــ سمعت الرعد يا كمال .. قل ماذا تريد !!

فقال كمال :

ـــ اسمعوا ولا تهذروا . فقد عشت معكم السنين الطوال لم أر منكم إلا الهذر .. أنت يا منصور تقتل ، تقتل النفس التى حرم الله قتلها .. وتنال من أجل هذا ثمنا بخسا . لا بأس أن تقتل ولكن لابد أن تنال الثمن وتحسن تقديره .. أعرفه

ماذا ستقول . . أنت ترى أن زملاءك ممن يستأجرون للقتل يقبضون نفس المبلغ الذى تقبضه أنت ، ولكن من قال إن القاتل ذا اليد القاعدة لا ينفع إلا فى الاستئجار للقتل ؟ إنك تستطيع أن تثير الرعب فى الناحية فتنال ما تريد . وأنت يا نمرود ، ماذا ؟ ألا تستطيع أن تعمل فى غير المخدرات ؟ ألا تلف بالبلاد وتعرف الصفقات ، ومن يملك كثيرا فيعطى من عنده القليل . لماذا لا تستفيد من دوراتك ومعلوماتك فيستفيد منها الجميع ؟ وأنت يا زهار منذ تركت العسكرية لا تحسن شيئا ، إلا أن تميل بالطاقية وتفتح الزر الأعلى من الجلباب ، فإن استأجرك أحدهم لتحرس شيئا أو لتقف خلف أنفار فبها وإلا فإنك لا تسرق إلا توافه الأشياء . وجعلت أكثر اعتمادك على استخدام النمرود لك فى تصريف بضائعه ، فعشت على نفقته فرحا لأنك تجد ما تأكل ، وهو فرح لأنه أصبح ذا مستخدمين ومساعدين . وأنت ذكى لأنك لا تسرق الرجل الذى استأجرك للحراسة وإن كنت تسرق جاره . وذكاؤك يا مسكين لا يعود عليك بغير النفع الضئيل . وأنت جرىء لأنك تسرق فى وضح النهار وتعتمد على الضوء فى سرقاتك ، وتقول لمن يتهمك : إنك لا يمكن أن تسرق فى الضوء . جرأة وذكاء ولكن بلا فائدة ، ولو أنك استعملت جرأتك وذكاءك فى السرقات الكبرى لكنت ذا نفع كبير . وأنت يا نور دخلت السجن وخرجت ثم لم تنتفع من دخولك وخروجك ، وقد كنت فى المديرية تعرف الكثيرين ، والعمدة منذ ذلك الحين يكن لك بعض الاحترام ، ولكنك تكتفى بالجلوس معنا معتمدا بعد ذلك على فدان وعشرة

قراريط لا تجنى منها غير يسير مال . ثم أنت معتمد بعد ذلك على الجلوس معنا ، تروى عن أحداث الليل التى تدعى أنك شهدتها وما شهدت منها شيئا . خسارة .. كان يمكن أن تشهد لو أنك عملت ولم تتكلم ، وسعيت ولم تتشدق .

ثم سكت كمال فإذا القوم وقد فغرت أفواههم من الدهش ، وحملقت عيونهم فى كمال يسمعون منه عجيبة لم ينتظروا أن يسمعوها يوما .. وتزداد العجيبة غرابة أن تصدر عن كمال الذى لم يروا لسانه يتحرك فى فمه إلا بمدحهم والمبالغة فى هذا المديح .

وقطع منصور هذا الصمت فى دهشة لا تزايله :

— يا ابن الكلب .. ومن أين تعلمت هذا ؟

— تعلمته من الرجل الذى أخذ من الشيخ عبد الودود سبعمائة وخمسة وعشرين جنيها وثلاثة وخمسين قرشا ، ومن عبد الرحمن السلامى مائتى جنيه وجنيهن وأربعة وسبعين قرشا ، ومن الخواجة استاورو خمسين جنيها وخمسة وخمسين قرشا .

فقال منصور فى دهشة أقرب إلى الفزع :

— ولد .. من أين عرفت حقيقة هذه المبالغ ؟

— ألم أقل لك إننى كنت مع من أخذها .

— ومن هو ؟

— لا أقول لكم حتى أبلغكم رسالته كلها .

— وما هى ؟

ـــ لا أقولها لكم حتى تقسموا على المصحف .

ـــ نقسم .

ـــ على ماذا ؟

ـــ نقسم على ما يريد .

ـــ إنه يريدكم أن تقسموا على أن تكونوا معه رجلا واحدا تأتمرون بأمره ، لا يرتفع صوت أمام صوته ، وقوله أمر ، وإشارته تنفيذ ، ماذا تقولون ؟

وتراجع الدفراوى ، ثم نظر إلى إخوانه متسائلا فرد إليه إخوانه نظرته بنظرات أكثر حيرة ، وإن كانت تحمل أيضا رجاء إليه أن يقبل ما يعرض عليه . ولكن الدفراوى يسأل كمالا :

ـــ وماذا نفيد من هذا ؟

ـــ عزا لا تحلمون بمثله .. ومالا لا تبلغ إليه أوهامكم مهما يشتط بكم الوهم ، فأنت يا زهار ستتزوج سعدية أم الخير التى طالما تمنيت زواجها .. فلن يكون زواجها من صالح أو سعى أحمد أبى خليل حائلا بينك وبين الزواج منها ، ولن تحتاج بعد اليوم إلى أن تكون أجيرا أو عاملا بسيطا فى توزيع تجارة النمرود . وأنت يا دفراوى لن تقتل بعد اليوم إلا فى سبيل الجماعة التى تعمل معها ، وستحميك من كل شىء . وأنت يا نمرود ستتسع تجارتك فتصبح كبير تجار مصر كلها . وأنت يا نور لن تحتاج بعد اليوم لريع فدانك الحقير ، سيجرى المال فى يدك فلا تدرى أين تنفقه .. ماذا تقولون ؟

وينظر الدفراوى ثانية إلى القوم ويسألهم :

ـــ ماذا تقولون يا رجال ؟

وصمت الرجال بأفواههم وقالت عيونهم : « نقبل » . ولكن الزهار قال :

ــ الأمر إليك ، فأنت كبيرنا .

وعاد منصور يسأل كمالا :

ــ ومن هو صاحبك ؟

ــ لا أذكر اسمه حتى تقبلوا .

ــ أخشى أن يكون خائبا فيضيعنا .

ويقول كمال فى ابتسامة هازئة :

ــ أمن أخذ هذه الأموال خائب ؟ . ماذا جمعت أنت فى حياتك كلها ؟؟ ؟ ما أظنك بلغت ما أخذه هو فى ليلة ؟ !

ــ أجننت يا ولد ؟ لقد لعبت بالفلوس لعبا . إنى اكسب القرش من ...

ويقاطعه كمال ساخرا :

ــ من فم الأسد .. سمعت هذا الكلام كثيرا .. كم فى جيبك الآن .. ؟ كم فى منزلك ؟

ويبهت منصور ويتلجلج ، ثم يقول لمن حوله محاولا أن يغطى خزيه :

ــ ماذا تقولون يا رجال ؟

ويقول الكحلة :

ــ ما تقول أنت ؟

ويقول منصور :

ــ وماذا لو قبلنا ؟ فإن لم تعجبنا الحال قتلنا الرئيس .

ويقول كمال :

ـــ على مهلك ، فإنك ستقسم على المصحف أن تخلص له كل الإخلاص .

ـــ آه .. صحيح !

ـــ ثم إنه ليس ساذجا ، وهو يتغدى بك قبل أن تتعشى به ، وهو يعرف أسراركم جميعا لا يغيب عنه سر واحد منها ، ورقة صغيرة إلى المأمور تعدم أنت ويحبس إخوان الصفا .

ويقول منصور لمن حوله فى تردد مذعور :

ـــ هيه يا رجال ؟

ويقول النمرود :

ـــ نقبل يا منصور .. وإذا لم يعجبنا الحال نفضها .

ويقول منصور كمن جمع أمره أخيرا :

ـــ الأمر لله نقبل .. من صاحبك ؟

ـــ القسم .

ويقوم النمرود إلى داخل المنزل فيحضر المصحف ، ويسأل منصور :

ـــ نقسم أن نطيع من يا كمال ؟

ـــ تقسمون أن تطيعوا الذى أخذ أموال الشيخ عبد الودود وعبد الرحمن السلامى والخواجة ، وأن تخلصوا له والا تخرجوا عليه مهما تكن الأحوال .

واقسم الجماعة على المصحفَ القسم الذى أراده لهم كمال ، وما إن أتموه حتى التفت منصور إلى كمالٍ يسأل فى لهفة :

ـــ من هو إذن ؟

ولكن كمالا لا يريح ثائره بل هو يقولُ :

— اسمعوا أولا ما ينوى أن يفعله لكم ، انه سيشترى لكل منكم حصانا وبندقية ومسدسا ، إلا انه يقول . . .

— هيه . . ماذا يقول ؟

— يقول إن فى هذه البلدة فقراء كثيرين ، وهو يريد أن يفرض إتاوة على الأغنياء ويعطى منها للفقراء .

— وماذا سنفيد نحن ؟

— تفيدون أنكم ستطبقون الأفواه حواليكم فلا تنطق إلا بحمدكم ، وتقومون بأعمالكم فى الظهر الأحمر فلا يشهد عليكم أحد . . ثم إنكم لن تعطوا هؤلاء الفقراء إلا ربع أو خمس ما تنالون .

ويقول النمرود :

— وماذا سننال ؟

— ستنالون جنيها عن كل قنطار قطن يخرج من هذه البلدة ، وستنالون خمسين قرشا عن كل إردب حب تنتجه الأرض ، وستنالون خمسة جنيهات عن كل فدان يباع ، تنالونها من البائع لأنه اصبح وفى يده مال ، وتنالونها من المشترى لأنه ملك ما يشترى به . وستنالون جنيها فى العام عن كل جاموسة أو بقرة لتحفظوها لصاحبها فلا تسرق منه ، وهذا جميعه غير ما ستحصلون عليه من الماشية من البلدان الأخرى فتبيعونها أو تردونها بالحلوان ، غير الاستفادة من الطرق الخالية التى لا يحرسها أحد . الا يكفيكم من هذا جميعه أربعة أخماسه ، وتهبون للفقراء خمسه ، فيظل القوم حولكم صامتين لا يكشف احد من أمركم شيئا ؟

وقال منصور وقد جف حلقه ، وبلغت به الدهشة أقصاها :

ـ يا ابن الكالب .. من صاحبك .. ؟ من صاحبك .. ؟ أشهد أنه رجل وابن رجل .. وأشهد أنه سيدى وتاج راسى .. من هو ؟

ورفع كمال الجلباب عن حزام الشيخ عبد الودود ، وفك أربطته فى تؤدة ثم رماه أمامهم فارغا فذهل القوم ، ولكن كمالا لم يبال ذهولهم بل هو يضع يده فى جيب صداره فيخرج حافظة الخواجة يلقيها أمامهم ثم يضع يده فى جيب جلبابه فيخرج حافظة عبد الرحمن فيلقيها أمامهم ، كل هذا فى بطء شديد ، بينما راح الرجال الأربعة يقلبون الأشياء ويتعرفون عليها واحدة واحدة .. فهذه أوراق عبد الرحمن ، وهذه أوراق مكتوبة بغير اللغة العربية فهى للخواجة ، وفى ذهول مخدر لا يكاد يبين يتصايح أربعتهم صيحات تهم بالارتفاع ، فيمسك بها الذهول والفزع والحشيش .

ـ من ؟ .. أنت ؟

ويقول كمال فى صوت هادىء حازم لم يسمعه القوم من قبل صادرا عن كمال ، ولم يسمعه القوم من بعد صادرا إلا عن كمال :

ـ نعم .. أنا .

- ١٠ -

لم يكن تردد درية حين سألها كمال إن كانت ستذهب إلى البيت بعد زيارتها وليد دهشة من السؤال ، وإنما كان وليد حذر فى الإجابة ، فقد كانت تضمر فى نفسها زيارة أخرى لم تطلع عليها غير فاطمة ، فقد كانت درية تنوى أن تزور بيت الشيخ حسن لترى وقع رفض أبيها .

وفوجىء فتحى بدرية وهى تطلب إليه أن يتقدم إلى بيت الشيخ حسن الذى كانت تعرفه كل المعرفة ، والذى طالما قصدت إليه فى ستار من الليل ، تجلس إلى الست أم صلاح . وقد كانت درية تظهر الحب كل الحب للست أم صلاح ، وجعلت من هذا الحب المصطنع ستارا أسدلته على حبها الحقيقى ، فكانت ترحب بأم صلاح كلما ألمت بهم فى زيارة ، وكانت تظهر لأمها شوقها إلى أم صلاح كلما تأخرت هذه عن الزيارة .

وهكذا لم تر بأسا أن تزورها الليلة ، فما كان مفروضا أن تعرف بما كان بين الرجلين ، وما كان مفروضا أن تقطع أم صلاح فلا تزورها لمجرد أن أباها رفض ابنها . ولكنها مع كل هذا التبرير الذى اصطنعته لنفسها أوعزت لفاطمة أن تكتم خبر هذه الزيارة ، وأن تطلب إلى فتحى أيضا أن يكتمها .

كانت درية تعلم أن فخرى لم يقم فى القرية بعدما كان من نبيها ، وأنه رحل إلى القاهرة فى الباكر من الصباح التالى ، فهو لم يسمع من أمر الجرائم التى تمت شيئا ، وهكذا كانت تعلم انها فى زيارتها تلك لن تلقاه ، ولكنها أرادت أن تقوم بهذه الزيارة عسى الأمل ألا ينقطع عند آل الشيخ حسن ، وعساهم يكررون الطلب إذا ما سنحت سانحة ليتكرر هذا الطلب .

— مساء الخير يا خالتى أم صلاح .

— أهلا . . مساء الخير يا حبيبتى ، خطوة عزيزة ، مرحبا بالحبيبة بنت الحبيب .

— أكثر الله خيرك يا خالتى أم صلاح ، كنت فى البلدة فلم أرض أن أمر ببيتك دون أن أزورك .

— مرحبا يا حبيبتى ، شرفت !! . يا فاطمة .

— نعم يا ستى أم صلاح ؟

— عندك البن فى الطاق ، اعملى لنا فنجان قهوة الله يسترك ، انت عارفة مكان الحاجات .

— من عينى يا ست أم صلاح .

وتقوم فاطمة إلى القهوة ، وتعود أم صلاح إلى ضيفتها :

— أظنك كنت تزورين المساكين الذى اعتـــدى عليهم قاطع الطريق .

— إى والله يا خالتى مساكين ، حالهم يبكى .

— لا اعلم والله أين كانت هذه المصائب مختبئة لنا يا بنتى ؟

— إى والله يا خالتى .

— والمصيبة ان المصائب كلها جاءت متلاحقة ، عمك الشيخ

حسن مريض .. منذ كان عند أبيك .. خرج مريضا من عندكم ولم يخرج من البيت حتى الآن .

— ألف سلامة له .

— والله زعل من أبيك جدا يا درية .

— ماله يا خالتى ؟ كفى الله الشر .

— والله يا بنتى لا أعرف .. حمى — بعيد عنك — أم برد ... لا أدرى .. لا يكلم أحدا ولا يأكل شيئا منذ جاء من عندكم ، وزاد عليه المرض عندما سافر فخرى .

— كل شيء يهون يا خالتى إن شاء الله .

— عرف بالحوادث التى جرت ، وحاول أن يقوم فلم يستطع القيام ، حتى لقد جاء الخواجة استاورو قبل أن يَسطى عليه فلم يستطع أن يلقاه ، وقال إنه سيعود إلينا فى اليوم التالى ، ولكن اللص هاجمه فى الطريق فلم يعد بعدها إلى البلد أبدا .

— وبعد يا خالتى ؟

— لا بعد ولا قبل .. هى مصيبة وحطت علينا ، والأمر لله .. حتى الذين باعوا قطنهم للخواجة استاورو وقبضوا منه عرابين قطنهم لم يأتهم أحد ليتسلم القطن ، وقد سمعوا أن الخواجة لن يعود إلى بلدة السلام مرة أخرى ، وقد قصده أحمد أبو خليل يطلب إليه أن يأتى ليتسلم قطنه فقال له : إنه لن يعود إلى البلدة أبدا ، وأنه لا يريد العرابين التى دفعها .

— وبعد يا خالتى ؟

— القطن عندنا كالقتيل لا يجد من يشتريه ، وقد ذهب أخوك

صلاح اليوم إلى المديرية ليبحث عمن يشتريه ، ولم يعد حتى الآن .

— إن شاء الله يجد المشترى يا خالتى .

— والله يا بنتى لا أظن . التجار خائفون من القرية ، والتجارة يا بنتى أمان . النهاية .. كيف حالك أنت ؟

— الحمد لله يا خالتى .

وعادت فاطمة بالقهوة ، فراح ثلاثتهن يشربنها على حديث فاطمة التى انتهزت فرصة الصمت من السيدتين ، فقالت :

— ألم ترى وطنية اليوم يا ستى أم صلاح ؟

— لا والله يا بنتى ، لها أيام لم تأت .

— هناك .. إنها اليوم فى أحسن حال — على الأقل فى شكلها — إلا أنها مع كل ما هى فيه من نعيم غاضبة ساخطة كأنما مات لها عزيز .

— خير ؟ ما الذى جد عليها ؟

— جد عليها ؟ جلباب إن رأيته قلت فستانا .. أحمر حلو ، عصبت رأسها بمنديل جديد ، والعجيب أن شعرها خاضع للمنديل الجديد ولا أدرى بماذا أخضعته ، لابد أنها اشترت له زيتا غاليا .

فقالت أم صلاح :

— عجيبة .. ألا تكون هى قاطعة الطريق ونحن لا ندرى

وضحك النسوة الثلاث ضحكا عاليا ، قطعه عليهم سعال الشيخ حسن صادرا من مقعده بأعلى المنزل ينادى زوجته :

ـــ يا فضيلة .
ـــ نعم ياشيخ حسن .
ـــ فنجان قهوة وحياة والدك .
ـــ حالا يا سى الشيخ .
وقبل أن تستأذن فاطمة لعمل القهوة ، استأذنت درية لتنصرف قالت أم صلاح :
ـــ ولم ؟ . . اقعدى قليلا . . سأعود إليك حالا .
ـــ لا ، تأخر بنا الوقت وأخشى أن يدخل أبى فلا يجدنى ، وهى فى هذه الأيام غاضب ضيق النفس لا يطيق الدنيا . . مسيت بالخير يا خالتى .
ـــ مسيت بالخير يا حبيبتى . . بلغى سلامى للست الحاجة ، وإن شاء الله أجىء إليها عندما يغادر عمك الشيخ حسن الفراش .
ـــ سأبلغها يا خالتى .
وحيت فاطمة أم صلاح وانصرفت تتبع سيدتها إلى الخارج ، حيث وجدتا فتحى واقفا ينتظر خروجهما . وسار الركب عائدا إلى بيت العمدة ، مارا بالنيران والأنوار الخافتة والرجال المتحلقين ، ولكن درية لم تحفل شيئا مما مرت به ، فقد هاجت لها الزيارة ذكريات قديمة وجديدة لازمتها حتى أسلمتها إلى أمها المتسائلة عن التأخير ، فراحت درية تقص عليها ما لقيته فى البيوت المنكوبة ، وراحت الأم تسمع فى عجب حزين .
وحين خلت درية بحجرتها وأعادت ما كان من أم صلاح وترحيبها ، أدركت أن أم فخرى لم تقطع الأمل ، فهى تعرف عن الست فضيلة ذكاء متوقدا ، وهى تعرف أنها ما كانت

لترحب بها هذا الترحيب إلا لأنها تضمر فى دخيلة نفسها أن تعود إلى المحاولة ، وقد تمكن هـذا التفـكير من درية حين تذكرت وعد أم صلاح بزيارة أمها . وهى تدرى أن أم صلاح ما كانت لتزور الأم إن كانت قد قطعت الأمل فى هذا الزواج الذى تصبو إليه نفوس كثيرة .. وهى تدرى أن أم صـلاح ما طلبت إليها أن تبلغ والدتها بهذه الزيارة إلا لتشـير لدرية نفسها من طرف خفى أنها غير غاضبة ، وأنها ما زالت تأمل أن يتم هذا الزواج ، فما كانت أم صلاح لتغبى أن زيارة درية إنما تمت فى خفاء عن والديها .

وبهذه الآمال التى أحيتها درية فى نفسها استسلمت إلى نوم منضور ، وأغمضت عينها على أحلام وردية لا شأن لهـا ولا صلة بهذا السواد الحالك الذى يحيط بقرية السلام ، وبعمدة قرية السلام .

- ١١ -

فرغ العمدة من صلاة العصر وخرج إلى مجلسه من شرفة الدوار ينتظر رفاقه ، وإن كان فى هذه الأيام لا يطيق أن يرى أحدا ، فالمركز يطلبه دائما وهو حائر لا يدرى ماذا يفعل ، والمأمور لم تجد معه الهدايا والتزلف ، فإن الجرائم التى ارتكبت كانت أكبر من كل الهدايا مهما تعظم ، ومن أى تزلف مهما يبلغ ، حتى لقد هدده المأمور بالوقف إن هو لم يقبض على الفاعل ، وطلب إليه أن يكون على صلة دائمة به ليبلغه كل إشاعة تروج ، فلعل لإشاعة منها امتدادا للحقيقة .

ولم يطل الانتظار المنفرد بالعمدة فقد قدم إليه نور الكحلة وما كان يتوقعه ، ولكنه فرح بلقياه فهو يعرف عنه أنه خريج سجون ويعرف المجرمين ، وداخل العمدة أمل أن يجد عند نور ما يضىء له بصيصا مهما يكن خافتا يهديه فى هذا الظلام الحالك ، وقال فى نفسه إن لم يرشدنى إلى الفاعل فلعله يرشدنى إلى اسم أقدمه إلى المأمور فيلهيه عنى بعض الحين ، وهكذا وجد نور نفسه فجاة محل ترحيب لم يكن ينتظره .

ـــ أهلا وسهلا . . كيف حالك يا نور . أين أنت يا أخى ؟ . . من زمن طويل لم أرك .

ـــ تحت أمرك يا حضرة العمدة .. تشوقت إليك والله فقلت أزورك .

ـــ والله جئت فى وقتك يا نور .

ـــ تحت أمرك يا حضرة العمدة .

ـــ يا أخى المصائب تتلاحق على البلد ولا أجد أحدا منكم يساعدنى .. لا لم أكن أنتظر هذا منكم يا نور .

ـــ نحن خدامك يا حضرة العمدة .. ماذا نفعل .. ؟ أنت تعرف طبعا أننا لا شأن لنا بهذه الأعمال .

ـــ سبحان الله يا أخى !! وهل قلت إن لكم شأنا ؟ إننى أعرف خطواتكم جميعا ، وطالما سكت عما يفعله منصور والنمرود والولد الزهار أيضا .. وكنت أقول ما داموا يبتعدون عن البلدة فليفعلوا ما شاءوا .

ـــ والله يا حضرة العمدة إن هذه الجرائم لم ندر بها إلا بعد وقوعها .

ـــ أعرف ، ولكنى كنت أنتظر منكم أن تبحثوا معى عن الفاعل وتدلونى إليه . أيرضيكم أن يصبح عمدة بلدكم ضحكة فى أفواه العمد ؟ !!

ـــ لا قدر الله يا حضرة العمدة .

ـــ لقد قدر فعلا ، وأنا من أسكت عنكم ، وأعرف أن النمرود يبيع الحشيش ويساعده فى ذلك الزهار ولم أتكلم ، بينما أستطيع أن أبلغ عنهما ، وأعرف أن منصورا قتل الفرماوى ، وأعرف كل من قتلهم منصور ومع ذلك لم أتكلم .

ــ إنهم يا حضرة العمدة يدعون لك دائما ويعرفون أنك تكرمهم ، وهم فى انتظار الإشارة منك .

ــ ألم تسمعوا شيئا عن الفاعل فى هذه الجرائم ؟

ــ يا حضرة العمدة هذه المصيبة جاءت من الخارج ، رجال لطيف بك غاضبون وأصبحوا يخشونه بعد مقتل الفرماوى ، وهو يعرف تخوفهم هذا فأصبح لا يعطيهم ما كان يعطيهم ؛ فأظن أن واحدا منهم أو بعضهم خرج إلى الطرقات المظلمة ليعوض ما أكله عليه لطيف بك .

ــ يا أخى قل كلاما غير هذا .. ومن أين يعرفون بخروج الشيخ عبد الودود ، وبمجىء الخواجة استاورو إلى البلدة ، وبسفر السلامى وعودته ؟ .. لا يا عم ، شرع الله عند غيرك .. إنه واحد من أهل السلام .

ــ والله يا حضرة العمدة أنت أدرى ولكن هذا ما بلغنا ، ورجال لطيف لا تخفى عليهم خافية ، وأولاد الحرام كثير .

ــ جائز .. ولكن لا أظن .. على أى حال يا نور لك عندى جائزة كبيرة إن أنت عرفت الفاعل وأرشدت إليه .

ــ ربنا معنا يا حضرة العمدة .

وقبل أن يجيب العمدة صعد إلى الشرفة الشيخ رضوان والحاج على ، ورحب العمدة بالرجلين ، وبدأ الحاج على الحديث :

ــ أسمعت يا حضرة العمدة الإشاعة التى ملأت البلد اليوم ؟

ــ هيه .

ــ يقولون إن رجال ...

ــ لطيفة بك ؟

ــ نعم ، أبلغكَ هذا ؟

ــ والله نور هو الذى قالَ لى الآن .

ــ الإشاعة فى البلد كلها يا حضرة العمدة .

ــ كلام فارغ .. المجرم من البلد .. ولكن من هو ، لا أعرف .. مجرم جديد لا نعرفه ..

وقال الشيخ رضوان :

ــ سنريحك من حديث الجرائم قليلا بحديث فارغ ؟

ــ خير ؟

ــ لا والله إنه ليس خيرا ولكنه أهون من هذه الجرائم .. إنه تسلية على كل حال .

ــ ماذا ؟

ــ سعدية أم الخير ..

ــ وصالح .. ثانية .

ــ ياحضرة العمدة العيشة لا تمكن بينهما .. لا تمكن أبدا .

ــ لماذا ؟

فقال الحاج على :

ــ غضبت منه ثانية .

ــ قلْ عاشرة ..

فضحك الجميع من نكتة العمدة ، وتابع الحاج على حديثه :

ــ وذهبت إلى دارها ، وأظنها ستجىء إليكَ الآن .

ــ عظيم .. لم يبق أمامنا إلا سعدية وصالح .. نقيم لهما عمودية ثانية خاصة بهما .. عظيم عظيم !!

وقبل أن يكمل العمدة سخطه يصعد صالح إلى الشرفة ..

ـ السلام عليكم يا حضرة العمدة .

ويجد العمدة مصدر سخطه أمامه ، فيقول فى سخرية مريرة وفى ضيق بلغ مداه :

ـ عليكم السلام يا سيدى ورحمة الله وبركاته .. نعم !

ـ البنت سعدية .

ـ مالها ؟

ـ تركتنى وذهبت .

ـ فى ستين داهية .. اسمع يا بنى .. اقترب هنا . خذ ..

ويضع العمدة يده فى جيب صداره ويخرج حافظته ويخرج منها جنيهين ، ويكمل حديثه :

ـ خذ يا صالح .. جنيهين ثمن الفراخ وأنت حر مع زوجتك . تطلقها تطلقك ، تقيم معك تتركك .. المهم أن تتركنى أنت يا بنى . ارحمنى يا أخى !!

ـ يا حضرة العمدة وهل طلبت منك ثمن الفراخ ؟

ـ من غير طلب يا بنى .. يا بنى .. ابعد عنى .. اعمل لى هذا المعروف يا بنى .

ـ وإلى من اذهب يا حضرة العمدة .. إنها ..

وقبل أن يكمل صالح حديثه تصعد سعدية إلى الشرفة وترتمى على قدمى العمدة .

ـ خلصنى يا حضرة العمدة ، أنا خادمتك ، ليس لى فى الدنيا غيرك يا حضرة العمدة .. أنت الذى رميتنى وأمرتنى أن

أصالحه . . أرجوك يا حضرة العمدة . . أبوس رجلك يا حضرة العمدة .

ونتر العمدة قدميه مبتعدا بهما عن سعدية ، وهو يقول :

— عظيم . . تمت . . ماذا افعل الآن يا سى صالح !

فقال الحاج على كمن يحاول تهدئة الحال :

— قل لى يا صالح . . أترى يا ابنى العيشة بينكما ممكنة ؟

— وماذا أفعل يا عم الحاجعلى ؟

— طلقها يا بنى .

ويقول الشيخ رضوان :

— نعم . . طلقها يا أخى .

وتترقرق العبرات فى عينى صالح فتمسك بها رجولة ، ويهم بأن يقول « أحبهـــا » فترد رجولته الكلمة عن لسانه وتطلقه بقول :

— تكلفت فى زواجها فوق ما أطيق ، ولا أملك ما أتزوج به ثانية يا عم الحاجعلى .

ويقول الحاج على فى صوت يكاد يكون ساخرا :

— يا أخى اعتبرها تجارة بارت .

ويقول صالح فى صوت مختنق بالعبرات ، والمشاعر المختلفة بين الحب والكره ، والإقبال والنفور ، والعزة والذلة ، ازدحمت جميعها وأبت رجولته أن تبين عنها .

— ومن أين لى بمتأخر الصداق يا عم الحاجعلى ؟

وتصيح سعدية :



ـــ لا أريده .. أبرأتك من الحق والمستحق ، ولا أريد منك شيئا .. فقط .. طلقنى .

ـــ أهكذا يا سعدية .. وتهون العشرة ؟

ـــ تهون .

ـــ الأمر لله .. عندما يسترد الشيخ عبد الودود صحته أطلقك .

وينبرى الشيخ رضوان قائلا :

ـــ وما الحاجة إلى الشيخ عبد الودود . ؟ قل لها : طلقتك ثلاثا طلاقا بائنا لا رجعة فيه تصبح طالقا ، وأوراق الشيخ عبد الودود تسجل الطلاق فيما بعد .

ويقول صالح فى تماسك كتماسك الزجاج المتحطم أوشك أن ينهار :

ـــ أهذا ما تريدين يا سعدية ؟

وتقول سعدية فى جمود مشيحة بوجهها عنه :

ـــ نعم .

ـــ فأنت طالق يا سعدية ثلاثا ، طلاقا بائنا لا رجعة فيه .

ويتنهد صالح تنهيدة عميقة وهو ينصرف عن مجلس العمدة قائلا :

ـــ حسبى الله ونعم الوكيل .. حسبى الله ونعم الوكيل .

وتنفجر سعدية باكية بكاء عالى النشيج ، وتنصرف عن العمدة لا يدرى القوم إن كانت قد انصرفت راضية أم آلمة . ويصمت القوم فترة من الزمان ما أحسوا أطالت أم قصرت فكأنما

شاهدوا مصرع شباب أمام أعينهم . ثم يقطع العمدة الصمت قائلا :

ــ لعلنا نرتاح بعد ذلك من سعدية وصالح .

وما إن يتم العمدة جملته حتى يبدو الشيخ حسن متوكئا على ابنه صلاح وقد بدا أثر المرض على كل جارحة فيه ، وراح يئن وهو يصعد درج السلم فى آناة هزيلة ، وما إن يراه العمدة حتى يقف فيقف الجميع .

ــ مرحبا .. مرحبا .. أهلا أخى .. والله العشرة لا تهون .. لا تهون أبدا .

ويتقدم العمدة إلى السلم فيأخذ مكان صلاح ، ويجعل من نفسه تكأة للشيخ حسن ، ويسير حتى يبلغ به مجلسا إلى جواره فيقعده ويقعد إلى جانبه ويعود القوم إلى أماكنهم ، ويتابع العمدة ترحيبه :

ــ أهلا .. أهلا .. ألف سلامة .. مالكَ .. ؟ ! والله ما سمعت أنكَ مريض .

ويكون الشيخ حسن قد استجمع بعض قواه التى أنهكها المشى وصعود السلم .

ــ مريض منذ تركتكَ والله ، وما إن سمعت بالحوادث حتى قمت أريد أن أجيء إليكَ فهدنى المرض .. وماذا ستفعلُ .. ؟

ــ أهذا ما جاء بكَ ؟

ــ طبعا .. وهل كنت تنتظر غير هذا ؟ ! .. البلد فى شدة وأنت عمدتها .. إن لم نقف معكَ جميعا فعلى البلد السلام .

ــ والله الشدائد حلوة .. ووالله أخ .

ـــ طبعا .. وهل يمنعنى عنك شيء وانت فى شـــدة ؟ ماذا ستفعل . ؟ ابنى صلاح امامك مره أن يفعل ما تريد ما دام المرض يفعدنى أنا ، وقد أرسلت اليوم خطابا إلى فخرى ليجيء .. اجعل منهما خفراء ، اشتر لهما السلاح ، وعين لهما ما يفعلان .. أموالى تحت أمرك .. صلاح باع القطن وسيأتى التاجر ليتسلمه غدا ، وقد دفع العربون مائة جنيه خذها ها هى ذى .. اشتر بها سلاحا للقرية ، وسأحضر لك بقية ثمن القطن بعد تسلمه .. أم ماذا ستفعل ؟

وترقرقت الدموع فى عينى العمدة وهو يرى صداقة عمره ماثلة أمامه لم يمنعها الخصام ولم تردها المغاضبة ، فأقبل صديق العمر أخو الصبا والشباب والكهولة يقدم أولاده وماله ، ضعف جسمه فقدم ما يغلو عن جسمه ، قدم امتداد حياته ، قدم آماله فى المستقبل وما بعد الحياة ، قدم ولديه وما لديه من مال بل وما يرتقبه من مال أيضا . ويقول العمدة وعبراته على وجنتيه سائلة لا يردها ، فهى عبرات يشرفه أن تسيل .

ـــ بارك الله فيك يا حسن .. لا شيء .. لن افعل شيئا أكثر مما فعلت أنت ، وماذا يمكن أن افعل اكثر مما فعلت أنت ؟

ووجم القوم يعجبون من هذا الذى يرون .. وتضاءل كل منهم أمام نفسه .

وأمام هذه الشواهق العالية من الرجولة راح كل منهم يجد عليلا فيه شيء من الدناءة لما يقوم به الشيخ حسن ، لعله أن يعيد لنفسه سابق كبرها بعد أن أحست مقدار بعدها عن الرجولة الحق . فالحاج على يقول فى نفسه : « إنه تظاهر .. إنه يعلم

أن العمدة لن يأخذ المائة جنيه ، ولن يجيش الجيوش ولن يشتري السلاح » . والشيخ رضوان يقول : « لابد أنه يريد أن يقترض من العمدة مثل المائة الجنية مائة أخرى ليعطيها لابنه الذى يتعلم فى العاصمة » . أما نور فقد كان الأمر عنده أخطر من هذا وأجل .. لقد رأى عصابته مهددة بهذا الشيخ الخرف الذى يريد أن يقضى عليها وهى فى مهدها . وكان الأمر عنده خطيرا أيضا لأنه علم أن قطن الشيخ حسن سيسلم غدا ، ولابد لهم ان يبدأوا عملهم به فيصيبوا بهذا هدفين برمية واحدة ، فهم أولا سيبدأون عملهم الأساسى فى فرض الإتاوات وسيبدأونه مع رجل من وجوه القرية ، وهم أيضا سيسكتون ذلك الصوت الذى يبدو عاليا . ويهم نور بالقيام ولكنه يرى أن يلبث قليلا حتى لا يفطن القوم إليه ويذكروا قيامه هذا عندما يتم ما يزمعه ، والظنين كثير الوساوس . يفيق الجمع من وجمتهم وقد أعد كل منهم جملة نفاق يلقى بها عند مقدمى الشيخ حسن ، ولكن العمدة يقول :

ـــ أبق عليك المائة الجنيه الآن .. فإن احتجت إليها طلبتها .

ويقول الشيخ حسن :

ـــ ماذا ؟ أتظنني جئت أعرض كلاما ؟

ـــ لا والصداقة التى بيننا ، لا والله الذى لا إله إلا هو ، ولكن عندى فضلة مال وما أظننى أحتاج إلى شىء الآن ، فإن احتجت قلت .

ـــ ولماذا تقوم بالأمر وحدك ؟

ـــ لا والله لن أقوم به وحدى ، ولكنى لا أستطيع شراء السلاح قبل أن أستأذن المأمور وأطلب الترخيص ، حتى إذا

عزمت على الشراء طلبت منك ما تريد أن تدفع .. وعلى كل حال أحفظ هذا المبلغ ولا تصرفه حتى نجمع رأينا على أمر .

ـــ وهو كذلك .. هذا المبلغ وأضعافه تحت أمرك .. السلام عليكم .

ولكن رضوان يسارع قائلا :

ـــ والله إنك رجل .. ونعم الرجل .. بارك الله لك فى مالك واولادك يا شيخ .

وصيح الشيخ حسن غاضبا :

ـــ لا .. لا يا شيخ رضوان .. الواجب لا يجوز المديح عليه ، وأنى رجل أمر لا يحتاج إلى تقرير .. كلنا عند الشدة رجال يا رجل .

ويهم بالقيام ثانية فيسمع صوت نفير سيارة قادما من قريب ، فيمتقع وجه العمدة وهو يقول :

ـــ المأمور .

ويمكث الشيخ حسن فى مكانه لا يبارحه بعد أن يرى امتقاع العمدة ، وتتفتح أفواه الجالسين صموتا حتى تأتى السيارة ، فيتبين العمدة انها ليست سيارة المأمور . ولكن الخوف لا يزايله إذ لعله أن يكون المأمور قادما فى سيارة أخرى ، وما تلبث السيارة أن تقف ويخرج منها رجل فى الحلقة الخامسة من عمره جامد الوجه غليظ الجسم كثير الزينة والحلى .. كلهم يعرفه وكلهم يخشاه وكلهم يداريه وكلهم يكرهه ، وينزل من خلفه ثلاثة رجال مدججون بالسلاح . ويصيح العمد وقد أصبح عند باب السيارة :

ـــ مرحبا لطيف بك .. أهلا وسهلا .. خطوة عزيزة .. شرفت يا سعادة البك .

ويتقدم القوم يصافحون لطيفا ما عدا الشيخ حسن الذى ظل مكانه ، حتى اقترب منه لطيف بك فوقف له فى اجهاد :

ـــ أهلا سعادة البك .. لا تؤاخذنى فالمرض أقعدنى .

ويجيب لطيف بك فى محاولة بليدة للرقة :

ـــ سلامتك يا شيخ حسن .

ويعود القوم إلى مجالسهم ، ويأخذ لطيف بك مكان العمدة ، ويبدأ الحديث فور جلوسه :

ـــ سمعت بما حدث عندكم فقلت لابد أن أزورك ، إننى مستعد لكل شىء .

ـــ أطال الله عمرك يا سعادة البك ، والله لا ندرى من أين جاءتنا هذه المصائب .

ـــ غريبة .. أنا نفسى تعجبت جدا ، وتممت على الأولاد فعرفت أنهم جميعا كانوا بعيدين عن أمكنه الحوادث ، وسمعت اليوم أن فى البلد إشاعة عن رجالى فاستعلمت ثانية فتأكد لدى أنهم لا شأن لهم بهذه الحوادث . والأولاد عنــدى كلهم عيون على بعضهم البعض فلا يمكن أن يفعل أحد منهم شــيئا ولا أعرف به ، وأنا لا أرضى أن أصيب بلدة مجاورة لى بشر ، خاصة وأنا أرجو منها الخير فى الانتخابات ، وإنى ـــ وإن كنت سقطت فى الانتخابات الماضية ـــ إلا أنى لا أنسى أنــكم بلدة مجاورة .

ويقول واحد ممن جاءوا معه :

ـــ والله إن سعادة البك دائما يأمرنا الا نتعرض لأحد من هذا البلد بشر أبدا .

ويقول لطيف بك :

ـــ أليس كذلك ؟ . . وعلى كل حال أنا سأظل وراء هذا المجرم حتى أعرفه .

وتختلط أصوات القوم بالدعاء للبك ، ويميل الشيخ رضوان على الحاج على هامسا فى صوت خفيض :

ـــ هل اقتربت الانتخابات ؟

ـــ أظن ذلك .

وجاءت القهوة فراح القوم يحتسونها بين دعاء للبك ، وبين شكوى إليه من وقف الحال بعد أن نفر التجار عن القرية ، وبين أمل فى المستقبل بعد أن باع الشيخ حسن قطنه إلى تاجر فى المديرية ، والبك يستمع يعلق أحيانا أو يرتجه الجهل بفاعل هذه الحوادث فيصمت ، ولم يكن البك لبقا فى الحديث ولا بذى علم فى غيره ، وإنما هو غنى فاجر جعل فى العصابة التى انشأها غناه عن كل ما عداها ، فهو بإجرامها قوى ، وبأسلحة فتيانها عالم . الم يتيحوا له بأسلحتهم أن يتكلم فيصمت الجميع ، وأن يشير فتسمع مشورته ، وأن يلجأ إليه المتملقون ، يسألونه النصح فينصح ؟ فنصحه أمر لا محيد عنه ، فهو فى هذه الناحية عزيز وإن كان ذليلا ، وهو فيها عالم وإن كان أقل من جاهل .

ولم يثبت البك أقدامه فى أعماق الطين ، ولم ترسخ دعائمه فى أغوار العفن عن قلة كفاية ولا عن لعب وهزل ، وإنما هو

قاتل سفاك ، ثبتت أقدامه بقتل من يجرؤ على معارضته ، ووطد دعائمه بالقضاء على كل من تطاول يوما فقال الله أكبر على الظالم والعاتى . والقتل طبيعة فى النفس الشريرة والحياء ستار رقيق ، ولا فرق بين الشريف والقاتل إلا ستار الحياء الرقيق هذا ، فإن سقط هذا الستار وظهرت الطبيعة العارية ، فليس ثمة حد لما تفعله النفس الخبيثة ، فالقتل أهون شرورها . لقد كان البك يتخذ من هذا القتل أداة افتخار واعتزاز ، بل إن البك لا يخجل أن يصنطع منطقا للقتل ، فإن عجز عن اصطناعه اصطنعه المنافقون من حوله ، وقبله هو وردده حتى اقتنع به وحاول أن يقنع به الآخرين ، ومن هؤلاء الآخرين من يقتنع لأنه لا يملك إلا أن يقتنع ، ومنهم من يصمت لأنه لا يملك أن يتكلم ، ومنهم من يخشاه البك — فإن لكل سيد سيدا — فلا يقتنع ولا يهتم البك إن اقتنع هذا الذى يعلوه منزلة أو لم يقتنع ، فإنه حتى هذا الرجل الذى يخشاه البك مهما يكن مكانه منه لا يستطيع أن يصده عن طريق سار فيه فأمعن . وما دام هذا السيد الذى يخشاه البك قد قبل أن تكون ثمة صلة بينه وبين هذا البك المجرم ، فإنه هو أيضا يصبح ولا قيمة لرأيه ، وحسب البك منه أن يستعين به إن اقتضاه أمر أن يستعين به ، وأن يستعين هو بالبك إن اقتضاه أمر أن يستعين به . ومهما يكن هذا الأمر هينا ، ومهما يكن شريفا ، إلا أنه — وقد استعان به — فإنه يصبح أمامه أقل من أن يملى عليه رأيا . والبك لا يعدم فضيلة ، فهو يخلص أشد الإخلاص لأصدقائه على ألا ينالوا منه ، وإلا انقلب عليهم .

هكذا كان البك بعيدا كل البعد عن الشرفاء الأنهم هم لا يحبون أن يقتربوا منه ، وقريبا كل القرب من أولئك الكبار الذين يوسعون له فى مجلسهم ويسمحون له أن يقول على مسمع منهم فيغوص أمامهم فى الوحل فيحقروه ولا ينتشلوه ، فهم إنما يصطنعونه لأنفسهم ، ويكتفون بإلقاء دعابة مازحة تعليقا على حادث قتل قام به ويروى أمره عليهم . فإن أراد أن يسوق إليهم منطقه هذا الذى اصطنعه أو الذى اصطنع له ، رفضوا الموافقة عليه بدعابة أخرى ، وأقنعوا أنفسهم أنهم قاموا بواجبهم ، وما أكثر ما تخادع نفسها النفس .

وقد يجد البك من يرده عن غيه ردا عنيفا ولكنه لا يرتد ، فقد شاء الله الرؤوف بعباده أن يوجد بالناحية المجاورة أنور بك صدقى . وهو رجل يحب الحق فلا يعدوه ، وقد ناصب لطيفا العداء وحاول أن يرده باللفظ فلم يرتد ، فراح يحاربه بكل سلاح إلا سلاح الجريمة ، وكل سلاح بطىء أمام الجريمة ، والسلاح المشهور أقل مضاء من السلاح المتستر بالليل الأسود من الضمير المريض . وقد كانت أسلحة لطيف جميعها مستورة ، وكانت أسلحة أنور جميعها مشهورة ، فيرتكب لطيف الجريمة بالليل ويبلغ أنور النيابة فى الصباح .

وهكذا كان يستطيع لطيف دائما أن يأتى جرائمه ، ولم يستطع أنور أبدا أن يثبت عليه جريمة وإن استطاع أن يجعل اسمه فى كل مكان شريف سبة وعارا . وقد استطاع أنور أن ينجح فى الانتخابات ، ولقد نال من قرية السلام نفسها أغلب أصواتها ، ولم يستطع لطيف أن يقتل من خرج عليه فى الانتخابات

لانهم كانوا أكثر من أن يقتلهم جميعا ، ولأنه كان يأمل منهم خيرا في الانتخابات التالية . ولكن هـذا لم يمنعـه أن يصيب الأعيان الذين ناصبوه العداء في إصرار عنيف ، والذين دعوا ضده في غير بلادهم فهو يسرق بهائمهم ويحرق زراعاتهم ويهـددهم بالقتل إن أمعنوا .

ولم يستطع أنور أن يفعل شيئا إزاءه إلا أن يعوض هؤلاء بماله عما أصابهم في سبيله ، وكان يبلغ الأمر إلى السلطات وهو واثق أن لا سبيل لهذه السلطات على المجرم الأصيل .

وهكذا لم يستطع أنور إلا أن يحد من إجرام لطيف دون أن يصل إلى وقفه ، ولم يستطع لطيف أن يقتل أنور فقد كان يعلم أن عائلته الكبيرة لن تسكت عنه إن هو فعل .

كان منطق لطيف أن الرجل الحقيقي هو الرجل الذي ينفع ويضر ، وأنه لا خير في رجل ينفع فقط ولا يضر أبـدا كأنور ، وبهذه الفلسفة البسيطة سمح البك لنفسه أن يشارك الله في خلقه ، ويقتل ويسـمى ذلك ضررا ، ويجـزى ويسمى ذلك نفعـا .

والبك وإن يكن شحيحا إنه كريم لصـحبه الكبار يبـذل لهم الهدايا ، وكريم أيضا لصحبه المجرمين يوسع لهم أسباب العيش ، إلا أنهم إذا طمحوا إلى أكثر مما يعطيهم هيأ لهم مصيرا كذلك الذي هيأه لكبـيرهم الفرماوي على يد منصور الدفراوي .

ـــ ولا يجهل البك مجرما في الناحية أو صديقا لمجرم أو متعلقا بالإجرام أو هاويا له . فهو ملجؤهم يختار لهم المحامين ويمدهم

بالقرض — دون العطاء — ، ويصطفى منهم لنفسه الأشداء الغلاظ .

هكذا كان لطيف بك لا يجهل أحد من الجالسين إليه فى دوار العمدة شيئا من أمره .

ولقد اتفق جميعهم على احتقاره فى دخيلة أنفسهم واختلفوا فى أسباب طى هذا الاحتقار لا يجاوز دخيلة النفس ، فمنهم من ينافقه عن طبيعة للنفاق ، ومنهم من لا يخاشنه لأنه لا فائدة ترجى من مخاشنته ، ومنهم من لا يعنيه أن يصانعه أو يخاشنه فهو يتخذ منه موقفا لا مباليا ، فإن حياه أجاب ، وإن أقبل قام ، وإن غاب فلا سؤال ولا ود .

جميعهم كان يحتقره ، شأنه فى ذلك شأن عارفيه جميعا . جميعهم إلا نورا فهو وحده الذى يكن له الاحترام ويبديه ، وماله لا يفعل ؟ ولطيف بك فى نظره المثل الأعلى الذى يحتذى ، والرجل الذى يحمى الرجال ، والإله الذى يجزى فجزاؤه بعض مال ، أو يعاقبه فعقابه الموت .

كان القوم لا يزالون يشربون القهوة حين أقبل الحاج إبراهيم فألقى سلاما دون أن يصافح أحدا ، واتخذ لنفسه كرسيا قصيا عن مجلس البك وقريبا من سلم الشرفة ، وعاد البك يفتح موضوع السرقات مرة أخرى مع الحاج إبراهيم :

— ما رأيك يا حاج إبراهيم فى هذه الحوادث ؟

فقال الحاج إبراهيم فى بعض حدة :

— رأيى يا سعادة البك أنه لو كانت الناحية نظيفة من

المجرمين ، ولو كان المجرم يلقى عقابه الذى وضعه له القانون لا يستره عن العدالة أحد ، لما وقعت هذه الحوادث .

واستقبل البك هذه الملاحظة العنيفة فى صمت ولم يعلق عليها ، فهو يعلم أن الحاج إبراهيم لا ينطق بغير الحق ، وهو بغضى عما يقول لأنه يحتاج إلى عائلته الكبيرة فى الانتخابات ، ولأنه يعلم أيضا أن الحاج إبراهيم يقول له الحق فى وجهه ثم لا يصنع بعدها شيئا ، اللهم إلا الامتناع عن انتخابه .

ولم يكن ذلك فى نظر البك سببا كافيا للقتل ، فقد كان لا يقتل إلا خارجا عنيفا فى خروجه ، أو خارجا عليه من ذوى الإجرام ■

ونظر العمدة إلى الحاج إبراهيم نظرة فيها بعض لوم ، ولكنه لا يبالى ذلك منه بل يقول له :

ــ طلقت سعدية من صالح ؟

ويقول العمدة متعجبا :

ــ لا إله إلا الله يا حاج إبراهيم .. أهذا وقته ؟

ــ الحق يقال فى كل الأوقات يا شيخ زيدان .. طلقت سعدية من صالح لأنه فقير .. كره الله هذا والمؤمنون .. كره الله هذا والمؤمنون ؟ !

ــ لا إله إلا الله يا حاج إبراهيم .

ــ لا إله إلا الله دائما وفى كل وقت يا شيخ زيدان ، هو عون المظلوم على الظالم .. سلام عليكم .

ويقوم الحاج إبراهيم وينصرف وقد أخذت القوم رجفة من ذكر الله ، وكانوا قد انتهوا من شرب القهوة فقام البك لينصرف ،

وركب السيارة يحف به على الجانبين رجلان ، ويجلس الرجل الثالث فى مقدمة السيارة ، وقبل أن تتحرك السيارة ينادى الرجل الجالس فى المقدمة نورا :

ــ يا نور .

ــ نعم يا أبا سريع .

ــ أريدك فى كلمة وحياة والدك .

ويسرع نور إلى أبى سريع ، ولكن أبا سريع لا يتكلم فيدرك نور أنه إنما يريده فى سر ، فيدخل رأسه فى السيارة ويضع أذنه على فم أبى سريع ، ويهمس هذا فى أذنه :

ــ البك يريد الدفراوى أن يأتى إليه غدا .

ويجيب نور فى سرعة لا يسبقها ريث تفكير .

ــ حاضر .

ويخرج نور رأسه وتشرق على وجهه ابتسامة ، فقد بدا أمام الجميع موضع سر من البك أو من أحد رجال البك ، وتشرق على وجهه ابتسامة أخرى لأنه يعرف لماذا يريد البك الدفراوى . فقد كان يحزن البك أن تتم فى المديرية كلها عملية كهذه العمليات التى تمت دون أن يعلم بها من قبل ، أو يعلم على الأقل فيما بعد من الذى ارتكبها . ولم يكن هذا الحب الجارف للعلم نتيجة حب استطلاع بل كان نتيجة حب البك للحياة ، فإن أى مجرم لا يعرفه قد يقتله مأجورا على ذلك أو متفضلا ، ولم يكن البك يحب أن يقتل .

نعم كان نور مشرقا حين بارحهم البك ، فقد كان يظن أن الواقفين يجلون فيه أنه موضع سر البك المجرم . ولو كشفت

عن نفوسهم لأذهله الذى يجده بها من كره له وللبك جميعا ، ولأذهله أيضا احتقارهم إياه ، واحتقارهم المضاعف أضعافا كثيرة — بقدر فرق درجة الإجرام بينهما — للبك نفسه ، ولم يكن نور يظن أن لطيفا يمكن أن يكون محل احتقار من أحد .

كان الموعد قد حل لانتهاء الجلسة فقد جاء موعد العشاء ، استأذنوا من العمدة جميعا وانصرفوا ، وانفتل العمدة إلى منزله .

***

ذهب الحاج على والشيخ رضوان صامتين إلى دكان الحاج على فوجدا أحمد أبا خليل ينتظرهما ، فابتدرهما قائلا :

— مرحبا .. مرحبا .. يدك أقبلها يا عم الشيخ رضوان .

فيقبلها ويلتفت إلى الحاج على :

— يدك أقبلها يا عم الحاجعلى ؟

فيقبلها أيضا ، ولكن الشيخين غير راضيين فقد ارتجف قلباهما من حديث الحاج إبراهيم . ولم يجد الحاج على مفرا لنفسه من ضميره إلا أن يقول لأحمد :

— يا ابنى ألم تجد وسيلة لترضى بها الحاج إبراهيم ؟

ويربد وجه الفتى وتعلوه الحسرة .

— ماذا أفعل له .. ؟ ماذا أفعل ؟ قصدت إليه حين علمت بطلاق سعدية أرجوه أن يشترى الفدان الذى كان يريد شراءه ، وكنت قد اتفقت مع محجوب على أن يشترى منه عشرين قيراطا ،

وقلت فى نفسى : الفرق بين الثمنين يكون مهر سعدية . ولكن الحاج إبراهيم رفض أن يشترى الفدان وطردنى .

فقال الشيخ رضوان فى ضيق :

ـ أرخص له الثمن .

ـ أرخصته حتى بلغ ستمائة جنيه فأقسم لا يشتريه ، بل أقسم .. بل أقسم ألا يقبله هبة فتركته .

فقال الحاج على :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال الشيخ رضوان :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

***

وقصد الشيخ حسن مع ابنه صلاح إلى منزله ودلفا إليه فوجدا فضيلة تصلى العشاء ، ووجدا بجانبها الموقد والعيش وما تحتاج إليه القهوة ، فتركاها تنهى صلاتها ، ودخلا مخـزن القطن فوجدا الأنفار يعبئون القطن على ضوء المصباح ، فحياهم الشيخ حسن ، وخلع صلاح جلبابه واستعد ليأخـذ مكانه مع الأنفار وهو يقول : « كان الله فى العون يا رجال » .وما لبث أن غاص فى كيس وعلقه إلى سقف المخزن وهو يقول : « على بالمدد يا رجال .. هاتوا القطن لأريكم كيف يكون الكبس » .

فتركهم الشيخ حسن وخرج إلى زوجه فوجدها قد انتهت من صلاتها ، فحياها ثم طلب إليها أن تحمل الموقد والعشاء

وتلحق به إلى المقعد ريثما يصلى هو فرض العشاء . فأومأت له أنها ستفعل . فقد كانت لا تزال تسبح بعد الصلاة .

★★★

أما نور فقد انطلق إلى بيت النمرود يحمل فى ليلته أنباء ضخاما ، فقد كان سفيرهم إلى بيت العمدة ليتسمع الأخبار فتسمع وتزود منها ما لا تطيق جعبته أن تحمل ، وراح يقطع طريقه لا يدرى بأى أخباره يبدأ وبأيها ينتهى . وراح يصور فى ذهنه كيف سيطلق أخباره من عقالها الذى طال عليه الأمد من طول الطريق وانفراده فيه .

وبلغ نور منزل النمرود ودخله فوجد الجمع كما توقع أن يجدهم ، الزهار على الأرض يعد الجوزة ويديرها ، وكمال فى الصدر على الأريكة يحف به التبجيل والتوقير ، ويحف به أيضا النمرود والدفراوى .

— ١٢ —

فرغ الشيخ حسن من تناول عشائه وقهوته وراح يكمل سمره مع زوجته ، وراحت هى تعلق على حديثه بما يرضيه فما تعودت أن تلقى إلى سمعه إلا ما يرضيه ، وأحس الشيخ بعض برودة فى الحجرة فقال لزوجته :

— بالله يا فضيلة اقفلى الشباك ، فإنى أحس بعض برودة .

وقامت فضيلة إلى الشباك فأقفلته ، وراحا يتحدثان مرة أخرى ، ولم يطل بهما الحديث إذ ما لبث حجر أن اقتحم عليهما الغرفة محطما الزجاج فى سبيله إليهما ، واستقر الحجر أمام الشيخ حسن . فسارعت فضيلة إلى الشباك وهى تسب الأطفال الأشقياء الذين لم ينالوا من آبائهم الكلاب حظ تربية ، وفتحت فضيلة الشباك وراحت تدور بعينيها فى الظلام فلم تر أحدا ، ولكنها أطالت الوقفة والسباب منتظرة أن يأمرها الشيخ حسن بالعودة إلى مكانها ، ولكن الشيخ حسن كان مشـــغولا بأمر جليل .

أمسك الشيخ حسن بالحجر الذى استقر أمامه وأراد أن يعطيه إلى زوجه المشغولة بالسباب لتلقيه إلى الشارع . ولكن

يده لامست شيئا غريبا معلقا بالحجر تبينه فإذا هو ورقة مطوية ، نشرها فإذا هى خطاب موجه إليه :

« عرفنا أن قطنك سيسلم غدا إلى التاجر ، ولكننا نوينا أن نأخذ من الأغنياء لنعطى الفقراء واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، فقد قال الله تعالى : (وفى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم .) . ولذلك فإننا سنأخذ منك عشرين جنيها عن كل قنطار جنيها واحدا ، وسنصرفها فى أوجه البر ، فإن قبلت فأرسل المبلغ مع ابنك صلاح إلى طريق محطة السكة الحديد فيظل سائرا فيه ، وسيجد أحدنا ليرشده إلى الخص الذى نجلس فيه الآن ، واعلم أنك مراقب من الآن حتى يحضر صلاح بالفلوس ، فإن حاول أن يأتى بأحد معه فسيقتل هو ومن معه ، وإياك وعدم الدفع لأنك ستحزن حزنا شديدا ، وقد أنذرناك وانت من الآن المسئول وحدك عما سيحدث لك » .

(جماعة الخير)

قرأ الشيخ حسن الورقة ثم أعاد قراءتها ثم أعاد ، وفضيلة لا تزال بالشباك تشتم من قذف الحجر . فوضع الشيخ حسن الورقة فى جيبه وتوكأ على الأثاث حتى بلغ الشباك ، وراح ينظر مع فضيلة التى التفتت إليه قائلة :

ـــ لا أحد ، لا أدرى أين ذهب ابن الكلب .

فلم يجب الشيخ حسن وإنما راح يتوكأ مرة أخرى على الأثاث حتى بلغ باب الحجرة ، وفتحه ونادى « يا صلاح » . ولكن صوته لم يبلغ ابنه فسألته زوجته :

ـــ تريده فى شىء يا شيخ حسن ؟

فقال لها :

ـــ نعم ، ناده .

فنادت فضيلة من عند السلم بصوت جهير :

ـــ يا صلاح .

وسرعان ما جاء الجواب :

ـــ نعم يا أم .

فقالت :

ـــ كلم اباك .

وجاء صلال إلى حيث يبلغ اذنه حديث ابيه :

ـــ نعم يا أبى ؟

فقال الشيخ حسن :

ـــ اخرج إلى الشارع ودر حول المنزل وانظر إن كان احد واقفا ، وأسرع .

وراح صلاح يصدع بالأمر ذاهلا فهو لم يسمع الزجاج وهو يتحطم ، فالأمر غريب بالنسبة إليه ، ولكنه لا يسعه إلا أن يطيع أباه . وسرعان ما عاد صلاح يقول :

ـــ لا أحد يا أبى .

فقال الشيخ حسن :

ـــ أحكم رتاج الباب وعد إلى عملك .

فقال صلاح :

ـــ أمرك يا أبى .

وعاد الشيخ حسن يقول :

ـــ أما زال أمامكم عمل كثير ؟ .

فقال صلاح :

ـــ لا يا أبى ، فقد أوشكنا أن ننتهى .

فقال الشيخ حسن :

ـــ فاذا انتهيتم وخرج الأنفار فأحكم الرتاج بعدهم .

فقال صلاح وهو لا يزال ذاهلا :

ـــ أمرك يا أبى .

وانصرف صلاح عاجبا من أوامر أبيه هذه المتلاحقة ، فهو قد تعود أن يحكم رتاج الباب ولكنه لم يتعود أن يطلب إليه أبوه ذلك ، كما لم يتعود أن يطـــلب إليه أبوه أن يدور حـــول المنزل ليرى إن كان أحد واقفا ، ولكنه أقنع نفسه أخيرا بأن أباه يحتـــاط فى هذه الأيام التى شاعت فيها الحوادث ، وإن كان هذا الرأى لم يقنعه كل الإقناع فهو يعرف أباه ثبتا لا يخف فؤاده ، ولكنه لم يجد غير هذا الرأى فقبلته نفسه فى مضض وحيرة .

وعاد الشيخ حسن إلى غرفته فوجد عينى زوجته حائرتين فى وجهه ، تكاد تسأله العينان قبل اللسان :

ـــ خير يا شيخ حسن ؟ أكل هذا من أجل حجر ألقاه طفل ؟

وغمغم الشيخ حسن متفكرا :

ـــ لعب عيال .

فقالت الزوجة وهى حائرة لا تزال :

ـــ طبعا يا شيخ حسن لعب عيال ، فلماذا هذا جميعه ؟

وغمغم الشيخ حسن مرة اخرى :

ـــ لا شىء ، مجرد احتياط لا أكـــثر . هلم إلى النـــوم يا فضيلة .

وقصد الشيخ حسن إلى السرير الأسود القائم على أعمدته الأربعة فى ركن الحجرة ، وخلع عمامته وأعطاها فضيلة التى وضعتها على المنضدة ، ثم خلع الشيخ جوربه فى بطء ذاهل ، وألقى بنفسه إلى السرير غير حائر ، فهو لم يفكر لحظة فى أن يجيب جماعة الخير إلى مطلبهم فما تعود التهديد ، وما كان ليقبل أن يكون فريسة سهلة . وقد رأى أنه إن قبل فستتمادى جماعة الخير فى فرض إتاوتها فيعم الخراب القرية . ولكنه مع ذلك لم يعدم هاجسا فى نفسه أن هذه الجماعة قد تصيبه بسوء وإن كان لا يدرى أى سوء يمكن أن تصيبه به ، ولعله يرد هذا الهاجس عن نفسه بأنهم لن يجرؤوا . فلئن ينتهز لص من الليل غفلة ويهاجم بعض نفر فى الطريق ، فما يعنى هذا أن يجترىء هذا اللص فيفرض الإتاوة على وجوه القرية وأعيانها . وهكذا راح يفكر الشيخ حسن فى فراشه بينما راحت زوجته فى سبات بعيد . وما لبث الشيخ حسن أن راح يتمتم فى صوت ثابت : (بسم الله الرحمن الرحيم ، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا ، إنا معكم متربصون) . صدق الله العظيم .

وراح الشيخ يردد هاتين الآيتين حتى أسلمتاه إلى نوم هادىء عميق .

— ● —

جلست جماعة الخير فى الخص الذى أقاموه فى الصحراء قريبا من الطريق الواقعة بين البلدة ومحطة السكة الحديد ، وقد تحلق جميعهم حول كمال يبذلون له الإعجاب بخطته ، وهل تخيلوا يوما أنهم سيقيمون لكل عملية خصا يتسلمون فيه ما قد فرضوه على ضحيتهم ، ثم يهدمونه ويزيلون أثره ليقيموا مثله فى مكان آخر ، فيضيع أثرهم فى عرض الصحراء ولا يعرف لجماعتهم مستقر ؟ وهل فكر أحدهم إلا كمالا فى أن يترك الحجرة التى كانوا يجلسون بها فى بيت النمرود مضاءة مقفلة بالمفتاح ، حتى يظن العابرون بالمنزل والجيران أن أهل الحجرة جالسون بها لم يغادروها ؟ لا ، إن أحدا لم يفكر بهذه العبقرية إلا كمال .

وقد اتخذ كمال من مغارته المركز الرئيسى للجماعة .. لقد كانت تلك المغارة مهبط وحيه ، فيها انقطع عن الناس ليفرغ إلى الشيطان فيضع تلك الخطة التى ينفذها اليوم . وهكذا وجد أفراد الجماعة الجديدة رياسة حازمة تأتلفهم وتضع لهم الخطط قويمة قوية ، ووجد كل منهم لنفسه بندقية على أحدث طراز ومسدسا بساقية ، كما هيأ كمال لكل منهم حصانا جعل مستقره فى مغارة الوحى .

وهكذا استقام الأمر لكمال ، فهو يغدق عليهم من كرمه ، وهو يهددهم بأسرارهم ، وهو يروعهم بخططه المحكمة ، وهو من قبل قد جعلهم يقسمون له يمين الولاء على المصحف . وبين الإكرام والتهديد ، والوعد والوعيد ، تلين نفوس وتقبل ما لم تكن لتقبله ، فقبل العتاة الأربعة أن يكونوا أتباعا لكمال بعد أن كانوا يأنفون أن يكون كمال تابعهم .

قال الدفراوى :

ـــ ما للزهار تأخر ؟

فقال نور :

ـــ إنه ينتظر صلاحا على الطريق .

وقال النمرود :

ـــ ولكن الانتظار طال .. أخشى أن يكون الزهار قد وقع فى مكروه .

فأجاب الدفراوى :

ـــ أى مكروه يمكن أن يقع فيه ؟ لقد أعد له أبو كمال كل خطوة يخطوها حتى يصل بالمال إلى هنا .

وراح نور يقول :

ـــ إن عملية الزهار عملية عيال .

وعندئذ فقط تكلم رأس الحكمة كمال :

ـــ أحب أيها الإخوان أن نتعود ألا نحقر أى عمل يقوم به فرد منا ، فلكل أعمالنا مكملة لبعضها البعض .. لولا عملية الزهار ـــ وهى عملية كبيرة ـــ لما أتيح لنا أن نبدأ أعمالنا كلها .

فقال النمرود :

ـــ نعم يا أبا كمال أنت محق ، وعملية الزهار عملية مهمة فعلا يا نور ، إنه سيرمى الحجر ثم يسارع بالاختفاء ، ثم هو سيقف لينتظر صلاحا ، وأنتم تعرفون أن الشيخ حسن صلب الرأى لا يقبل ما يفرض عليه بسهولة ، فقد يرسل مع صلاح من يقبض علينا .

فقال نور :



ـــ نعم ، ولكن الم نتفق حينئذ أن يطلق الزهار عليهم بندقيته ؟

فقال النمرود :

ـــ الزهار فرد واحد ، ومهما يكن ماهرا فى التصويب فإنه إن جاءته جماعة لا بد أن تتغلب عليه .. فهى عمليـــة ليست يسيرة كما تتصور .

فقال الدفراوى :

ـــ الشهادة لله أيها الإخوان العملية التى نقوم بها كبيرة ، وما كان يصلح لها إلا نحن .

وهكذا جرى الحديث بين الجماعة ، وقـــد اتخذ كمال منـــه موقفا متعاليا فلا يشارك فيه بغير ملحوظة يبذلها ليضع القواعد ويؤسس العمد .

لم يطل بالقوم هذا الحديث إذ سرعان ما أقبل إليهم الزهار ، فما إن رأوه حتى وضع كل منهم لثاما حول وجهه فلا يبين ، ولكنهم سرعان ما أدركوا سخافة ما فعلوا حين تبينوا أن الزهار لا يضع اللثام ، فصاح كمال :

ـــ ويحكَ أين لثامكَ ؟

فقالَ الزهار :

ـــ لم اللثام يا أبا كمالَ ؟ إن أحدا لم يأت بعد ولكن ..

فقال كمالَ فى عنفَ :

ـــ فماذا جئت تفعلَ هنا ؟ . الا يجوز أن يأتى الآن سى صلاح .. صلاح .. فلا يجدكَ ويعود ؟

ولكن الزهار قالَ :

ــ تريث يا أبا كمـــال .. هل قلت لوطنيـــة أن تأتى إليك بالعشاء ؟

فقال كمال :

ــ نعم .. أمن أجل هذا تركت مكانك ؟ .. أين هى ؟

ــ أمرتها أن تنتظر حتى أعود إليها .. بنت الكلب هزئت منى ، أردت أن أضع اللثام حين رأيتها قادمة فإذا هى تقول : « مبروك البرقع يا زهار » . فأردت أن ..

فقال كمال مبتسما :

ــ اذهب يا زهار إلى مكانك وأرسل وطنيـــة ، ولا تضع الوقت .

وخرج الزهار ، والتفت الدفراوى إلى كمال يسأله فى تمحل محاولا أن يفتح لنفسه طريقا للمزاح مع الزعيم :

ــ خير يا أبا كمال ، هل نحن اليوم مدعوون إلى العشاء عندك ؟

فقال كمال فى جد رضى :

ــ العشاء على حسابى فى كل يوم نقوم فيه بعملية .

ــ يا زين الرجال يا أبا كمال .

وأقبلت وطنية بعد حين بالعشاء ، وما إن دخلت حتى قالت :

ــ مساء الخير يا جماعة .

فإذا كمال يقول لها فى حزم :

ــ اخرسى يا بنت ، جماعة فى عينك قليلة الأدب .

ــ لماذا يا سى كمال .. ؟ أكل هذا لأنى قلت يا جماعة ؟

الستم جماعة الخير أم ظننتنى ــ لا قدر الله ــ اقصد الجماعة التى يقصدها الفلاحون حين يتكلمون عن نسائهم ؟

وأدرك كمال أن الإطالة فى الحديث قد تؤدى به إلى موقف لا ترضاه الزعامة ، فأقصر عن النقاش وسأل وطنية :

ــ ماذا أحضرت لنا ؟

ــ أوامر سعادتك يا كمال بك .. فراخ وحمام ولحم وأرز ، وسعادتك قلت إنك لا تريد خضارا ، لأن نفسك ملته أيام الفقر .

فقال كمال مسارعا :

ــ طيب ، طيب .. اقعدى كلى معنا .

ــ لا ، أكثر الله خيرك . قد تركت نصيبى فى البيت وسأتعشى وحدى ..

فأسرع كمال يقول محاولا أن ينقذ ذمام الزعامة التى أوشكت هيبتها أن تنهار أمام الرعية :

ــ طيب ، مع السلامة .

وخرجت وطنية ، وأراد الدفراوى أن يغير الحديث فقد أدرك أن اللهجة التى كانت تتحدث بها وطنية لم ترق كمالا . قال الدفراوى وهو يأكل نصيبه من العشاء :

ــ هيه يا أبا كمال .. هل أنت آت معى غدا إلى لطيف بك ؟

فقال كمال :

ــ نعم ، فإن دعوته لك لم تكن إلا نتيجة طبيعية للخطة التى دبرتها .

فتساءل الثلاثة فى لهفة :

ـــ كيف ؟

ـــ ألم أطلب إليكم أن تشيعوا أن أفراد عصابة لطيف بك هى التى قامت بهذه الحوادث ؟

ولم يبال كمال ثلاثتهم وهم يقولون : « آه » مذهولة ، بل راح يكمل حديثه :

ـــ لقد أردت أن يسمع لطيف بك بهذه الإشاعة فيرسل إليك يا دفراوى .

وسأل الدفراوى :

ـــ وماذا تريد منه ؟

قال كمال :

ـــ إنه غدا سيسألك عمن قام بهذه الأعمال .

فقال الدفراوى :

ـــ طبعا .

فقال كمال :

ـــ إنه ركن يمكن الاعتماد عليه ، وكل ما أريده أن تقوم بيننا صداقة ، فإننى أخشى أن يقضى علينا إن لم نصادقه .

فقال النمرود :

ـــ يحميك الله من العوادى يا أبا كمال ، نذهب إليه غـــدا بعد المغرب إن شاء الله .

وقال كمال فى هدوء :

ـــ أنا لا أخشى أحدا إلا أنور بك .

فقال الدفراوى :

ـ أنور . . الله يخرب بيته ، إنه سيقف لنا كالعقلة فى الزور ، ووالله لولا عائلته لقتلته من زمن بعيد .

فقال كمال فى حزم :

ـ اسمع يا نمرود ، عليك أن تذهب غدا إلى « الرحايمة » وتعرف إن كان أنور فى العزبة أم فى مصر .

فقال النمرود :

ـ أنا لا أعرف أحدا هناك ، فقد حرم عليهم أنور أن يدخنوا الحشيش فقطع عيشى من هناك ، الله يقطع . .

وقال الدفراوى مقاطعا :

ـ الشهادة لله أهل الناحية يحبونه كل الحب .

فقال نور :

ـ والشهادة لله إنه رجل يحب . . كان إذا أتى إلى المديرية همّ من بها جميعا إلى استقباله وتقديم الاحترام له ، وأشهد أنه كان يعطى نفحات طيبة . . أما لطيف بك فمع أنه كان يعطى نفحات طيبة هو ايضا إلا انه لا أدرى لماذا . .

فقاطعه كمال فى حزم :

ـ اذهب أنت يا نور واعرف لنا اين أنور الآن .

ـ حاضر ، سأذهب حين تكونون أنتم عند لطيف بك .

وراحت جماعة الخير تدير الحديث بينهما ، كل همها أن تقطع الوقت حتى يأتى لها المال المنتظر ، أو حتى يلوح الصباح فقد كان لهم مع هذا الصباح شأن إن هو سبق العشرين جنيها المفروضة على الشيخ حسن ، وطال الحديث ، وتناوب نور

والنمرود والدفراوى القيام إلى الزهار فى موقفه ليروا إن كان أحد قدم أم لا ، وكان الجواب دائما لا .

واقترب الفجر فأذنت الديكة والظلام لا يزال يلف الكون ، وجاء الزهار يائسا فنظرت الجماعة إلى كمال . وأنعم هو فيهم النظر واحدا بعد الآخر حتى إذا التقت نظرته بمنصور وقفت عنده جامدة ، وفهم منصور تلك النظرة فقام واقفا وخرج دون أن يقول شيئا .

وقامت بقية الجماعة تزيل آثارها من الخص وأهالوا الرمال على بقايا طعامهم ونيرانهم ، ثم هدموا الخص وتقاسموا قصباته يحمل كل منهم بعضا منها ، ورحلوا عن مكانهم ملثمين جميعا بعد أن ألقوا نظرة أخيرة على المكان ، أرادوا بها أن يتأكدوا أن الرمال لن تشى بهم أو تبوح .

— ١٣ —

استيقظ الشيخ حسن من نومه مع الفجر فوجد زوجه قد سبقته إلى اليقظة ، ووجد بالبيت ضجيجا وحركة ، فسأل زوجته فأخبرته أنهم الأنفار الذين اتفق معهم صلاح أن يأتوا ليحملوا القطن إلى سيارة التاجر . فابتدر الشيخ حسن وضوءه وصلى الفجر وقد أحس أن المرض قد بدأ يزول عنه ، وما إن انتهى من صلاته حتى سأل زوجه :

— وهل أخرجت لهم الفطور ؟

— نعم ، ولكن صلاحا لم يأت حتى الآن وأخشى أن تأتى السيارة قبل مجيئه .

— لم يأت ؟ ! وأين ذهب ؟

— ذهب إلى الحقل ليحضر بعض أطراف من أعواد الذرة لتأكلها البهائم .

— كان عليه الا يذهب اليوم حتى يسلم القطن .

— إنه يذهب كل يوم ويعود فى الفجر ، وقد حسب أنه يستطيع أن يذهب ويعود قبل أن تأتى السيارة .

فقال الشيخ حسن وقد داخله بعض التوجس :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله .. ما ضر لو كان انتظر اليوم إلى أن ينصرف التاجر .

ثم قصد إلى الشباك فنظر منه فلم ير ابنه قادما ، ولكنه رأى بباب بيته رجالا كثيرين فسأل زوجته :

ـــ بالباب أحمد أبو خليل والشيخ رضوان والحاج على ونور الكحلة ، وكثير غيرهم . ماذا جاء بهم فى باكر الصباح ؟

فقالت الزوجة متنهدة :

ـــ لقد جاءوا ليبيعوا قطنهم إلى التاجر كما بعت ، فقد أصبحوا ....

وقبل أن تكمل فضيلة جملتها جاء من بعيد صوت نفير سيارة ، ثم ما لبث الشيخ أن تبينها تقترب من بيته عالية الضجيج كثيرة الجلبة .

وما إن وقفت السيارة بباب البيت حتى تحلق القوم الواقفون بها ، ورأى الشيخ حسن من مكانه التاجر وهو يدافع عنه القوم المتحلقين ليتمكن من النزول من السيارة ، حتى إذا استوت أقدامه على الأرض سار بهم إلى المصطبة وجلس إليها وقعد القوم حوله على الأرض ، بينما راح الحمالان القادمان مع السيارة يعاونان أنفار الشيخ حسن فى وضع القطن بالسيارة .

وتوكأ الشيخ حسن على عصاه حتى نزل إلى القوم فحياهم ، وقام التاجر مرحبا بالشيخ حسن ، ثم ما لبث أن أخرج من جيبه لفافة كبيرة من الأوراق الخطيرة الشأن وقال للشيخ حسن :

— مبارك يا عم الشيخ حسن .

— بارك الله فيك يا أبا عليوة .. مباركة صفقتك إن شاء الله ، وإن كنت قد أنقصت الثمن عن السوق خمسة جنيهات فى القنطار ... النهاية ... مباركة والسلام ... ذهب صلاح ليحضر طعام البهائم وتأخر فقلت أنزل إليك نشرب القهوة معا .

— أهلا وسهلا .. ثمن القطن ستمائة جنيه ، أخذت مائة فيكون الباقى لك خمسمائة جنيه .

وعد أبو عليوة خمس ورقات أعطاها للشيخ حسن ، أخذها هذا ووضعها فى حافظته بينما راح الواقفون يباركون له وللتاجر ، ثم راح كل منهم يكلم التاجر عما لديه من قطن ، وسرعان ما انعقدت الصفقات بعد أن بخس التاجر أثمان القطن ، منتهزا فرصة انفراده بالقرية لخوف التجار الآخرين منها ، وراحت أوراق خضراء كثيرة تنشر وتطوى ، وراحت ألفاظ التبريك تتناثر على الشفاه . وكان قطن الشيخ حسن قد استقر على السيارة ، فقام التاجر وقد وعد أن يعود فى اليوم التالى ليتسلم الأقطان الأخرى ويسلم أثمانها .

انصرفت السيارة بحملها ، وظل القوم حول الشيخ حسن يتحدثون وهو عنهم لاه قد ازداد توجسه ، فهو ناظر إلى الطريق لا يريم ، حتى إذا لحظ الجماعة انصرفه عنهم هموا بالانصراف ، إلا أن واحدا منهم يسأل الشيخ حسن :

— مالك يا عم الشيخ حسن ؟

— تأخر الولد .

— منَ ؟

ـ صلاح ؟

ـ لا تخف ، لابد أن عائقا عاقه .

ـ لا يمكن ، ما كان شيء يعوقه عن تسليم القطن .. اللهم إلا ...

ـ يا رجل وحد الله .. وعلى كل حال سأذهب إلى حقلك لأرسله إليك .

ـ لا تتعب نفسك ، فالأنفار الذين كانوا يحملون القطن ما زالوا هنا ينتظرونه ليعطيهم أجورهم ، فهو من يعلم مقدارها .

ونادى الشيخ حسن :

ـ يا سيد .

ـ نعم يا عم الشيخ حسن .

ـ وحياة والدك اذهب إلى الحقل وانظر ما الذى أخر صلاحا حتى الآن .

ـ حاضر .

وانصرف سيد وراح القوم يتحدثون مرة أخرى ، ولكن الشيخ حسن لا يزال منصرفا عن حديثهم حتى يسأله الحاج على :

ـ مالك يا شيخ حسن ؟ الآن ابنك قد تأخر بعض الوقت تخاف كل هذا الخوف ؟ لا يا رجل ، لم نعهدك هكذا ، أم تراها هذه الحوادث أخافتك إلى هذا الحد ؟ !

ـ اسكت يا حجعلى أنت لا تعرف شيئا .

ـ لا أعرف ماذا يا شيخ حسن ؟ ! لا أعرف ماذا ؟ هل هناك شيء ؟

ـــ لا شيء يا حجعلى ، لا شيء ، سليمة إن شاء الله .

ـــ قل لنا يا شيخ حسن ، هل هناك شيء لا نعرفه ؟

وقبل أن يجيب الشيخ حسن ، يتعالى صياح من أقصى الطريق :

ـــ الحقونا يا هوه .. الحقونا يا ناس .. ابنك يا شيخ حسن .. ابنك

وينسى الشيخ حسن المرض وينسى عصاه ، ويلقى بجسمه إلى الطريق لا يعى شيئا إلا هذا الهول الذى يناديه من أقصى الطريق :

ـــ ابنك يا شيخ حسن .

وينتفض صوت الشيخ وهو يقول :

ـــ ماله ابنى ؟ .. ماله .. قل .. ماله .. ماله ابنى ؟ ماذا جرى له ؟

ويأتيه الصوت من قريب يحمل إليه الفاجعة :

ـــ ابنك قتل يا شيخ حسن . قتل ..

وينهد الشيخ حسن إلى الأرض ذاهلا :

ـــ قتلته .. قتلت ابنى .. حسبى الله ونعم الوكيل .

ويرتفع الصراخ من أعلى المنزل تطلقه الأم الثكلى ، ثم ما تلبث أن تندفع من الباب فى ثياب البيت فيتحلق حولها الشباب ويأخذون بها إلى داخل المنزل مبهورة عالية الصراخ ، تدافعهم عن نفسها تريد أن تذهب إلى الحقل لترى ابنها الصريع . وما تلبث النسوة من الجارات أن يقدمن إليها فيأخذن مكان الشبان الذين يخرجون إلى الحقل بعد أن أخذوا معهم ملاءة

يلفون بها الفتى القتيل . ويحيط القوم بالشيخ فيحملونه إلى المصطبة وهو ما يزال يقول ذاهلا :

ــ قتلته .. قتلت ابنى .

ويسأل الحاج على :

ــ وما ذنبك أنت يا شيخ حسن ؟ .. ما ذنبك أنت ؟

ويقول الشيخ حسن وهو ذاهل لا يزال :

ــ كبر على أن يهددنى المجرمون فأبيت أن أدفع لهم ما يطلبون .. لم أكن أظن أنهم سيقتلون .. حسبتهم لصوصا ولم أحسب أنهم قتلة .. حسبى الله ونعم الوكيل .

نظر الحاج على إلى من حوله فى أسف شديد متوهما أن الشيخ قد أصبح مدخول العقل ، ولكن توهمه لم يمنعه أن يسأل الشيخ حسن :

ــ ماذا تقول يا شيخ حسن ؟

وثاب الشيخ حسن إلى نفسه بعض الشىء حين رأى النظرات الحائرة من حوله تكاد تتهمه بالجنون .

ولو كان الشيخ فى تمام وعيه ، ولو أنعم النظر فى عينى نور لرأى فيهما .. وفيهما وحدهما أنهما غير حائرتين ، بل إنهما جامدتان تحملقان إلى الرجل فى تشوف العارف بالأمر لا يحدسه .. ولكن من أين للشيخ المهيض وعى ؟ ومن أين له أن ينعم النظر ؟ لقد كان قصاراه أن يثوب إلى نفسه بعض الشىء فى زحمة هذه الحيرة التى أشاعها فى الواقفين ، وكان قصاراه أن يدرك أنهم لا يعرفون من أمر خطاب الأمس شيئا ، وفى نظرات غائرة يخرج الشيخ حسن الخطاب من جيبة ويعطيه

الحاج على ، ويقرؤه الرجل ثم يخطفه منه من يليه ، ويروح الخطاب يلف فى الأيدى بين أعين جازعة حيرى ينظر كل منهم إلى المستقبل الذى ينتظره ، وتزداد الأيدى الخاطفة أو الأعين الهالعة فليس بين الجمع إلا من أخذته الرعدة إلا نورا .. وحده الذى كان ثابت الجأش راسخ الفـؤاد ، وقد وصـل الخطاب إلى يده وتظاهر بقراءته بينما كانت عيناه تدوران فيمن حوله ، يريد أن ينتهز منهم غفلة ليضع الخطاب فى جيبه . ولكن هيهات ، فقد كانت العيون كلها على الخطاب ، وما لبثت يد أن اختطفت الخطاب من يده قبل أن يفكر فى الوسـيلة التى يخفيها به . وأخذت الرعدة طريقها ثانية إلى القلوب بعد أن كانت قد توقفت عن سيرها قليلا عند نور ، حتى الفقراء الذين لا يملكون شيئا والذين عرفوا أن بالخطاب بشيرا لهم بالغنى .. حتى هؤلاء لم يملكوا فى هول الموقف إلا أن يرتعدوا مع الراعدين . وما هى إلا بعض الساعة حتى عاد الشباب بالجثة ، وحتى علا فى أجواء قرية السلام صوت الطبلة رتيبا ضخما عاليا ، تقرعها يد ثبتة واعية هى يد كمال .

- ١٤ -

وقيدت الحادثة ضد مجهول ، كما كشف الخطاب عن شيء للنيابة ، فما كان أحد ليعرف خط كمال وما كان أحد ليفكر فى كمال ليستكتبه .

لم يكشف الخطاب عن شيء للنيابة ، ولكنه كشـف لملاك قرية السلام الطريق الذى لابد لهم أن ينهجوه . لقد عرفوا أنهم لا بد لهم أن يدفعوا الإتاوة التى تفرض عليهم ، وعرفوا أنهم إلى الموت إن فكر واحد منهم أن يشى بالخطابات التى ترد إليهم مع الليل .

وحاول الشبيبة المثقفون فى القرية أن يثنوا القوم عن طاعة الأوامر ، ولكن هيهات لهم أن يصلوا بشجاعة ألفاظهم إلى القلوب الراعدة بين أضلاع القوم المساكين . وراح التاجر أبو عليوة يخرج كل يوم بأقطان من القرية فتعرف القرية أن الإتاوات قد دفعت مساء أمس عن كل قنطار خرجت به سيارة التاجر صباح اليوم .

وقد كان يصاحب كل سيارة خارجة حـركة نشـاط من المثقفين ، ولكنه نشاط يبلغ مصيره دائما إلى الفشل .

وكان فخرى قد جاء إلى القرية تلبية لأمر أبيه ، واستقبلته

الفاجعة فى بيته فـــراح يبذل كل جهده أن يصل إلى خــيط يهديه ، ولكن من أين له والفرائص من حوله ترتعد ، والألسن لا تملك أن تتحرك خفية فى أفواهها ؟

لقد كان أمر أفراد العصابة مجهولا ، وفى ستار الجهل بهم كانوا يعرفون ما يدور بالقرية جميعا ، فإذا القرية وقد غشـــيها الذعر الراجف ، تلتقى الأعين حسرى كليلة ، ويدور الحديث ، كل حديث ، فلا يلبث أن ينتهى إلى صمت مفاجىء ، ويطـــرق المتحدثون . فقد كان كل حديث يؤدى بهم إلى الرزء الذى انحط على القرية ، والذى لا يستطيعون أن يصفوه فقد ملأهم الخوف أن يصفوه .

الشك والريبة والمهانة والخوف . يحذر الأخ أخاه والأب ابنه والابن أباه . النسوة ذاهلات حيارى ، لقد رأين رجالهن ضعافا خانعين فانعدمت الثقة فى نفوسهن ، فما أصبحن يثقن بأحد ولا بشىء .

العمدة جازع تزداد نفسه ذلة أمام نفسه ، رائه كل يوم غاد إلى المركز ومنه لا يدرى ماذا يقول .. أيقول إنه دفع الإتاوة هو أيضا وإنه لا يدرى إلى من دفعها ؟ .. أيقول إنه وهو العمدة قد تلقى الرسالة مثل من تلقاها ؟ وانه خرج من باب الحريم فى دواره وذهب فى بهيم الليل إلى خص فى عرض الصحراء ، ودفع إتاوة إلى قوم ملثمين لا يبين منهم شىء فى ذلك الضوء المتهافت الذى اصطنعوه فى خصهم ؟

ماذا يقول العمدة وماذا يفعل ؟ إلا عبرة تنحدر من عينيـــه كلما ذكر وقفته من جماعة الخير وهم جلوس ، ودفعه لهم المال

يكاد يرى السخرية به فى أعينهم الخبيثة ، بل فى أيديهم التى امتدت إلى ماله ، والتى كانت مغطاة هى أيضـا بالقفـازات القطنية ؟ . ماذا يقول العمدة وماذا يفعل ؟

وانفذ كمال وعده إلى الفقراء فقد كانت تهبط عليهم صـبابة من المال من حين إلى حين ، وكم فرحوا حين وافتهم الدفعات الأولى ثم كم حزنوا بعد حين .

لم يكن هؤلاء الفقراء إلا الأجراء الذين يعملون بالأجرة فى حقول الملاك الصغار ، وقد كان شأنهم فى هذا الموسم أن يستأجروا ليبـذروا البرسيم تحت الذرة ، ولكن الملاك لـم يستأجروا واحدا منهم ولم يبذروا البرسيم ، بل إنهم حتى لم يفكروا فى قطع الذرة وتهيئتها للبيع . وكيف لهم أن يفعـلوا وهم لا يدرون ماذا يحمل لهم الغد ! أتعيش بهائمهم لتـأكل البرسيم ؟ أيباع الذرة إذا قطع ؟ .. لا يعرفون فهم لا يستأجرون أحدا ، وبحسبهم ما معهم من ثمن القطن يعيشون به وتعيش به بهائمهم أيضا ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

الفقراء أيضا فى حال من السخط الشديد ، فما كانت الأموال المفاجئة لتغنيهم عن الأجر المنتظم ..

مجلسان فى القرية لم ينقطع فيهما الحديث فجأة ، ولم تلتق فيهما العيون حسرى كليلة : المجلس الأول هو مجلس كمال ، وقد كان يأخذ فيه مكانه من الأرض صـدر الليـل ، حتى إذا انتثر عنه الناس وانفضوا إلى بيوتهم وخلا بهم المجلس ، ارتقى كمال مكانه على الأريـكة ، أما الأرض فهى لأى واحد منهـم غيره .وقد تنبهوا بعد الليلة الأولى أن يتركوا بهذه الحجـرة

الزهار أو النمرود إذا خرجوا هم إلى عملية لهم ، حتى يبيع ذلك المتروك المخدرات إلى من يقصد إلى بيت النمرود فى أغوار الليل . وقد أمر كمال أن يكون البيع دائما خارج البيت حتى لا يكتشف المشترى خلو الحجرة منهم عندما تخلو ، على أنهم لا يلبثون بعيدا عن الغرفة إلا ريثما يتم تسليم المبلغ المفروض ، ويذهبون إلى المغارة يودعونها أسلحتهم ثم هم ينقلبون إلى حجرة النمرود فرادى ..

وأما المجلس الآخر الذى اتصل فيه الحديث فهو مجلس الحاج على ، الذى تخلى عنه الحاج إبراهيم ليحل محله أحمد أبو خليل الذى لم يدفع بعد مؤخر الرشوة إلى الشيخ رضوان . وقد اتصل الحديث بينهم لأنهم كانوا يمتدحون ما تقوم به جماعة الخير ويذيعون هذا الحديث ويروجونه ، فقد كان النفاق فى دمهم لا يطيقون عنه محيدا . وقد كانوا جميعا أضيق ما يكونون بجماعة الخير فقد دفعوا هم أيضا — ما عدا أحمد — الإتاوة المفروضة عليهم ، ثم ارتأوا أن يذيعوا بين الناس أنهم دفعوها حبا فى الخير ، واقتناعا بالفكرة التى تسعى إليها جماعة الخير .. يحاولون بذلك أن يدافعوا عن كرامتهم التى هتكها الإجبار ، وتبعهم فى قولهم بعض القوم ليظهروا أمام نسائهم أنهم أشداء وإن كانوا قد دفعوا الإتاوة ، وأنهم كرماء يطيب لهم أن يمدوا للفقير عونا ..

كان هؤلاء قلة على أية حال ، وكانوا إذا خلوا بأنفسهم صارحتهم أنفسهم بحقيقة أمرهم فأصمتوها خشية أن يطلع أحد على خبىء نفوسهم ، أو خشية أن تنم عليهم نفوسهم .. نعم

لقد كان أبناء قرية السلام يخشون من أنفسهم أن تشى بهم أنفسهم .

أمر كمال ألا يغالى أفراد الجماعة فى إظهار مالهم الذى كسبوه من أعمالهم . فقد كان يخشى أن يدل ثراء المظهر على ما تدرؤه الأخصاص والمغارة والظلام عن العيون . ولكن أملا كان يتردد فى نفس الزهار أراد اليوم تحقيقه ، إنه الأمل الذى بثه كمال إلى نفسه حين كان يجتذبهم إلى إنشاء الجماعة .. سعدية .

استأذن الزهار كمالا أن يحقق أمله اليوم فليس أصلح من اليوم ليحقق أمله ، فالزوج قد طلق والمنافس لا يطيق أن يطاوله بالمال ، والطريق معد ولم يبق إلا السير فيه .. أذن له كمال وأعد له ما يقول عن أسباب غناه ، فحفظه ومضى شأنه إلى سعدية التى أقامت ببيت أبيها حتى يبيع أحمد قطنه ، وحتى يبيع أيضا بعضا من قراريطه ويهيىء لها العيش الذى تصبو إليه . وكان أبو سعدية قد مات بعد أن زوجها إلى صالح ، وكانت أمها ضعيفة لا تملك من أمر ابنتها شيئا ، فأصبح أمر سعدية كله بيدها :

ــ كيف أنت يا سعدية ؟

ــ أهلا زهار .. يا ترى أنظيف فى زيارتك أم تحمل معك تهمة من التى توزعها ؟

ــ لا .. نظيف والحمد لله .. سمعت يا سعدية أنك ستتزوجين من الولد أحمد ؟ !

ــ وما لزوم ولد هذه ؟

ـ إذن فأنت ستتزوجين منه ؟!

ـ وماله ؟ هل فى الزواج عيب ؟ !

ـ لا عيب به إن كنت تختارين من يليق بكِ .

ـ وماله أحمد ؟

ـ من أجل الفدانين !! ..

ـ فدانين وعشرين قيراطا .. هل تملكها أنت ! ؟

ـ لا أملك أرضا ، ولكنى أملك مالا .

ـ أتسمى هذه القروش التى تنحتها مالا ؟

ـ مرى أنفذ .. وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

ـ من أين لك ؟ لو كنت أكثر جرأة مما اعرفه عنك لقلت انك من جماعة الخير .

ـ يا ليتنى كنت .. يا ليت ؟

ـ والله لو دخلتها لخربت .

ـ يا ستى مالنا ومالهم ؟ .. أجيبى فيما أسألك .

ـ أجبنى أنت أولا .. من أين لكَ المال ؟

ـ شاركت النمرود .. أذهب أنا إلى البلاد ويقيم هو هنا ، وقد أفاد هذا التجارة لأن المخبرين لا يعرفوننى ، فاستطعت أن أبيع صفقة كبيرة .

ورأت سعدية أن كلام الزهار معقول ، وهى تعلم أن التجارة التى يعمل بها تدر الربح الوفير ، وهى ترى أن أحمد يطاولها وإن كانت أعذاره فى المطاولة واضحة لا ريب فيها .. وهكذا رأت الا تقطع الأمل من نفس الزهار فتضمن زيجة



على أية حال .. فإن لم تتم الزيجة بمن تحبه فلتكن زيجة بمن يحبها ، فقالت فى اهتمام :

ـ والله طيب يا زهار .. فأنت تكسب كثيرا الآن .

ـ أكثر مما تحلمين به ، وأضعاف ما سيأتيك به أحمد . وإنك تعلمين أننى أحبكِ قبل أن تتزوجى من صالح .. لقد أحببتك وطلبت الزواج بك قبل صالح وأحمد . لماذا لم يطلب أحمد الزواج بك قبل صالح ؟

ـ أتتجاهل ؟ .. ألا تعلم أنه كان حينذاك فقيرا لا يملك شيئا ، فقد كان أبوه لا يزال يحيا ، وكان ـ كما تعلم ـ بخيلا فلم يرض أن يعطيه ما يتزوج به .

ـ ولكننى كنت أحبك أكثر من أى إنسان فى الدنيا ، ألا تعلمينَ ذلك ؟

ـ أعلم .. يا زهار ، ولكن أحمد ماذا أقول له ؟

ـ لا تقولى شيئا ، أما ترين أنه حتى الآن لم يتزوجكِ .

ـ معذور والله ، وأعلم عذره .

ـ وما عذره ؟

ـ أراد أن يبيع بعض قراريط من أرضه فلم يستطع ، فإنه منذ أخذت جماعة الخير الإثارة عن الفدان الذى باعه عبد الحميد إلى عبد الجليل شيخ الخفراء ، والبيع والشراء قد انقطعا من البلد تماما . وقد حاولَ أن يبيع فدانا فى السر إلى الحاج إبراهيم ، وتعهد أن يقوم هو بالزراعة إلى أنْ يكشف ربنا الغم .. الغمة ، حتى لا تعرفَ الجماعة أنهُ باع شيئا ، ولكنَ الحاج إبراهيم كان قد أقسم يمينَ طَلاق ألا يشترى منه ، وعرض

عليه الفدان بأربعمائة جنيه فلم يقبل الحاج أن يشترى .

ـ هيه .. ولماذا لم يبع القطن ؟

ـ والله الله أعلم !!

ـ ولماذا لم يبعه إلى ابى عليوة ، لقد سمعت أنه قبض منه العربون .

ـ الله ، ولد يا زهار ، ستجعلنى أقول لك كل أسرار الرجل ؟ !

ـ يا ستى وهل بيننا سر ؟

ـ لقد جعلنى أقسم الا أبوح بهذا السر .

ـ وهل إذا قلته لى تحنثين بيمينك .. ؟ أنا نفسك يا سعدية ، ألم تعرفى هذا بعد ؟

ـ عارفة يا زهار .

ـ وصمتت بعض الحين ، ولكنه ابى عليها الصمت .

ـ هيه .. ماذا سيفعل أحمد ؟

ـ أخاف يا زهار أن تقول لأحد .

ـ يا سعدية اتقى الله .. أنا أذيع سرا لكِ .

ـ لقد أقسم أحمد على المصحف الا يعطى جماعة الخير إتاوة على قطنه .

ـ عجيبة .. وما الداعى ؟ أهو الرجل الوحيد بالقرية ؟ لقد باع اغلب الأعيان أقطانهم ودفعوا الإتارة ، أهو أشجع من العمدة أم من الحاج على أم من نور الكحلة ؟

ـ أراد أن يثبت أنه أشجع منهم جميعا .

ـ عجيبة .. ولماذا أراد أن يثبت هذا ؟ !

ـــ كان يتكلم معى وجرى الحديث عن الجماعة ، فقال إن البلد ليس فيه رجال وإنهم جميعا نسوان ، فقلت له : وماذا فعلت أنت ؟ وعيرته بأنه يمدحهم فى دكان الحاجعلى فأخذته الحمية ، وأقسم ألا يعطى الجماعة إتاوة ، وأن يبيع القطن برغم الجما . . الجماعة .

ـــ هيه . . والله رجل . . وماذا سيفعل ؟

ـــ احذر يا زهار أن تبوح بهذا الحديث لأحد . . إنها حياة رجل وأنت المسئول عنها .

ـــ أتشكين يا سعدية . . ؟ إذن فلا تقولى السر .

ـــ سأقوله ، ولكن أقسم أولا الا تبوح به لأحد .

ـــ وحياتك .

فابتسمت سعدية وتابعت حديثها :

ـــ ذهب اليوم إلى المديرية ليتفق مع أبى عليوة على أن يسلمه القطن فى المديرية بعد عد صباحا ، وسيذهب إلى النمايلة ويستأجر منها جملين حتى لا يعرف أحد هنا ما ينوى أن يفعله ، وسينقل القطن فى مساء الغد دون أن يحس به أحد .

ـــ ولكن . . ألن تعرف الجماعة انه باع قطنه فى الصباح ؟

ـــ إنه هو من سيحمل القطن ويخرج به فى المساء ، ثم يقفل المخزن فلا يعرف أحد أنه سلم القطن .

ـــ ومن أين عرف أن النمايلة ليس فيها عيون للجماعة ؟

ـــ لن يخبر أصحاب الجمال بما ينوى أن يفعله ، وإنما سيطلب إليهم أن يسلموه الجمال ليردها إليهم فى اليوم التالى لنقل القطن ، وسيضاعف لهم الأجر .

ـــ والله لئيم .. النهاية .. أنا سأغنيك عن قطنه وقراريطه وكل ماله .. ما قولك ؟

ـــ أشوف يا زهار .. أمهلنى أسبوعا افكر فيه .

ـــ وهو كذلك يا سعدية .. سيكون أطول أسبوع فى حياتى .. أتركك بخير يا سعدية .

ـــ وأنت من أهل الخير يا زهار .

★★★

لم يكن الزهار صاحب القلب الوحيـــد الذى يتصل أمله بجماعة الخير ، وإنما كان هناك قلب آخر اتصل أمله بهـــذه الجماعة .. أو هو فى الحقيقة أمل ظل يراود صاحبه وخشى حين تألفت الجماعة الا يتحقق .. ذلك الأمل الذى ظل يتردد فى قلب وطنية السنين الطوال أن تتزوج من كمال ، والذى ضعف بعض الشىء حين أنبأها كمال أنه صائر إلى الغنى ، والذى ازداد ضعفا حين اهدى إليها كمال الجلباب الأحمر والمنديل ، والذى لا يزال يضعف كلما رأت الأموال تتدفق فى يد كمال . وكلما ازداد ضعف الأمل ازداد تشبث صاحبه به . وفى غمرة من هذا التشبث قصدت وطنية إلى كمال فى بيته شأنها كل يوم منذ تألفت الجماعة ، إلا أنها اليوم وفى هذه الغمرة قد انتوت أن تطالبه بأن ينفذ ما وعدها به يوما .

ـــ صباح الخير يا كمال .

ـــ صباح الخير يا وطنية

ـــ هل ستخرج الآن ؟

ـــ لا ، ما الأخبار فى البلدة ؟

ـــ كما هى ، يدعو لك بعضهم من لســانه ويــدعو عليك جميعهم من قلبه .

فينتفض كمال جازعا :

ـــ أعرفونى ؟.

ـــ لا ، وكيف لهم أن يعرفوك وأنت أمامهم كما أنت تلبس أثواب المسكنة ، حتى إذا خلا بجماعتك مجلسك خلعت الستار وارتددت إلى طبيعتك ، تدبر القتل والخوف والجزع وإصابة أموال الناس بالباطل ؟

ـــ فكيف يدعون لى أو علىّ ؟

ـــ يقولون جماعة الخير .. الست الجماعة ؟

ـــ أعوذ بالله ، أبهذا تصبحيننى ؟

ـــ إن لم اقل أنا لك الحق فلن يقوله أحد .

ـــ ومن قال لكَ إنى اريد الحق منكَ أو من غيرك ، وعلى كل حال لماذا يدعون علىّ من قلوبهم ؟

ـــ الم تحرم عليهم أن يبيعوا أقطانهم إلا بالإتاوة ، وفرضت على بهائمهم الإتاوات ، وفرضت الإتاوة أيضا على بيع الأطيان ؟

ـــ كل من يملك أقطانا وبهائم وأطيانا غنى ، والفقراء أكثر من الأغنياء .

ـــ من قال لك ذلك . . ؟ من قال إن كل من يملكَ بهيمة أو قطنا أو أرضا غنى ؟ ومن قال إن هؤلاء كثرة ؟ ليس فى قريتنا إلا قلة نادرة لا تملك شيئا . وحتى هذه القلة غير راضية عنك ، فالأجراء أصبحوا لا يستأجرون ، وأصحاب الأرض جميعا وقف حالهم ،

ثم هم يقولون إنك فرضت الإتاوات لتأخذ معظمها لك وتعطيهم منها الفتات الذى لا يغنى . .لا يغنى أبدا بعد أن وقف عنهم الخير الذى كان يأتيهم ممن يستأجرونهم .

ــ والله اصبحت فصيحة ، ولكن كلامك فارغ ، فإن كل من يعمل خيرا فى هذه الدنيا لابد أن يجد من ينتقده . ولابد أن يجد الناس وسيلة ليجعلوا هذا الخير الذى يقوم به صادرا عن غرض فى نفسه غير الخير ، ولذلك يجب أن يعمل الإنسان الخير ولا يهتم بالناس .

ــ حكم .. والله حكم ، ولكنها للأسف صادرة عن ضال ، أتدعى أن السرقة خير ؟ عجيبة ! يا كمال ارجع فإنى والله أخشى عليكَ إن لم ترجع .

ــ ومالك أنت رجعت أم لم أرجع ؟

ــ مالى أنا يا كمال ؟ .. مالى أنا ؟ .. أنسيت كل شىء يا كمال ؟

ــ كلامكَ يثير الغضب والخوف يا وطنية .

ــ من خوفى عليكَ يا كمالُ ، الا تعلم يا ابن الكلب انه ليس لى فى الدنيا غيركَ .

ــ أما آن لكَ أن تنتهى عن الشتيمة ، لم أصبح كمالا الذى كنت تعرفينَ .

ــ نعم انت محقٌ ، لم تصبح كمالا الذى كنت أعرف ، وأين أنا منكَ الآن ؟ أنت لص يملأ الدنيا ذعرا وأنا وطنية ما أزالَ .

ــ لا ، أنا لا أقصد هذا . ولكن لسانكَ تعود شتمى وأنا الآن

محترم أمام الجماعة إلا منك ..

ــ وطبعا احترام الجماعة لك يمنعك أن تنفذ وعدك .

ــ وعدى .. أى وعد تقصدين ؟

ــ ذلك الوعد الذى كان الفقر يمنعك من تحقيقه ، ألا تذكره .. ؟ ألا تذكر يا ابن الـ .. نسيت ؟ فأنت تمنعنى من لذتى الوحيدة فى الحياة .. تمنعنى من شتيمتك ..

ــ أى وعد ؟ ، ذكرينى .

ــ والله لا أذكرك به أبدا ، إن كنت لا تذكره فلا جعله الله يتم .

ــ آه ! تقصدين الزواج ؟ وهل هذا يحتاج إلى تذكير يا وطنية ؟ وهل لى غيرك ؟

ــ نعم .. نعم .. اشتغل علىّ أنا الأخرى اشتغل ، كأنى فرد من جماعة الخير ..يا كمال طالما قلت لك إنى بنت حرام وهذا اللف لا ينطلى علىّ ، فأنا أعلم أن لك غيرى ولكن نجوم السماء أقرب إليك منها . وأنا أعلم أنك تصانعنى لأنى أعرف أسرارك جميعا ولأنك تحتاج إلىّ . ولكن اسمع يا كمال ، سأتظاهر بأننى أصدقك لأنى لا أملك إلا هذا التظاهر ، ولكن لابد لك أن تصنع لى سببا مقنعا يجعل تأجيل زواجك منى معقولا .

ــ إن هذا لا يحتاج إلى صنعة ، أخشى إن أنا تزوجتك أن تتجه إلينا عيون الناس ويتساءلون : من أين لكمال أو وطنية بالمال ؟ ولكن قولى لى ، من هى غيرك هذه التى تجدينها أبعد عنى من نجوم السماء ؟

ــ كمال ! ألا تعرفها ؟ !

ـــ من تقصدين ؟

ـــ ستك درية .

ويسكت كمال لحظة ذاهلا ثم يقول :

ـــ عجيبة !!

ـــ وما العجيبة ؟

ـــ أن تفكري هذا التفكير .

ـــ أهكذا .. لعلي مخطئة .. سأنتظر يا كمال ، سأنتظر يا ابن الـــ ..

وقبل أن تكمل وطنية وصف أبي كمال يطرق الباب فتفتحه وطنية ليدخل الزهار ، الذي ما يلبث أن يقص على كمال ذلك الخبر الذي خرج به من مغامرته الغرامية ، ويقول كمال في صوت حازم وهو يتهيأ للقيام :

ـــ ادع أفراد الجماعة ، سنجتمع في بيت النمرود .

— ١٥ —

كان الفجر يطلع على قرية السلام بطيئا شاحبا حين صحا العمد العمدة من نومه ينادى الخادمة أن تحضر إليه ماء الوضوء ، وما كان يفعل حتى سمع صوتا من دون الشباك عاليا أنكره أول أمره ثم ما لبث أن تبينه ، إنه كمال وإن كان صوته قد اكتسى قوة ، وزايله وهن واستعطافة :

— أطال الله عمرك يا حضرة العمدة ..

— أهلا أهلا كمال ، أترى الوقت وقتك يا كمال ؟

— إنه وقتى يا حضرة العمدة لم أتقدم عنه ولم أتأخر ..

— خير ؟ ماذا تحمل إلينا من أخبار .. ؟ من زمان لم أرك .

— أخبارى كلها تعرفها ، أصبحت لا أصيب قوت يومى .

— لماذا ؟ ألم تقدم لك فاطمة الفطور ؟

— لا .. ليس هذا ما أقصد إليه ، وإنما انقطعت الأفراح وقد كنت أصيب منها ما يقيم الأود أياما قد تصل إلى شهر .

— الله معنا يا كمال .

— يا حضرة العمدة ..

— هيه ... ماذا تريد ؟

— إلى أين أنت ذاهب اليوم ؟

ـــ وما شأنك ؟

ـــ مجرد سؤال فقط .

ـــ ذاهب إلى المركز ، وهل أصبح لى عمل فى هذه الأيام إلا المركز أروح إليه وأغدو ؟

ـــ آه .

ـــ ماذا تريد أن تقول يا كمال ؟

ـــ لا شىء .

ـــ أحس فى صوتك رنة من يريد أن يقول شيئا ، قله .

ـــ سمعت أن أنور بك قد جاء من أوربا مساء أمس ، ألا تذهب إليـــه ؟

ـــ وماذا أفعل له ؟

ـــ تهنئه بسلامة الوصول وتسأله أن يبحث لنا عن حـــل لمشكلتنا هذه .

ـــ وماذا بيده أن يفعل يا بنى ؟ وما أظنه إلا سيعلم بمصيبتنا ، ولكن ماذا يفعل ؟

ـــ يقيم الدنيا ويقعدها .

ـــ الدنيا قائمة قاعدة من غير أنور بك ، وأنور بك رجـــل حنبلى لا يقبل إلا العمل القانونى والقانون لا يسعف اليـــوم ، وإنما الذى يسعفنا العمل الحاسم العاجل .. ماذا نفعل بالقانون أمام السلاح يا بنى .. ؟ إن هؤلاء المجرمين الذين سلطوا علينا يعلمون أن القوة هى القانون .. لقد كان لطيف خليقا أن ينفعنا اليوم ، ولكنه اكتفى بزيارتى ولم أطلب إليه يومذاك شيئا ، معتمدا

على أن المأمور سيسمح لى بترخيص بعض الأسلحة ولكن المأمور رفض .

فسأل كمال وعلى فمه شبح ابتسامة :

ـ ولماذا لم تذهب إلى لطيف ثانية ؟

ـ ذهبت . .

ـ فماذا عمل لك ؟

ـ قال . . قال كلاما ولم يعمل شيئا : « أنا تحت أمرك . . سأكلم المأمور . . وأبلغ الداخلية » . ومعنى هذا أن أذهب أنا فى داهية ويبقى المجرمون . . وحين قلت له إننى أريد رجاله لأحمى بهم القرية ، قال إن رجاله لا يعملون لغيره .

وازدادت الابتسامة اتساعا على فم كمال فقد عرف كل ما كان يريد أن يعرف . . العمدة لا يريد أن يلجأ إلى الداخلية ، فهو لن يذهب لأنور بك لأن هذا لن يفعل شيئا إلا الالتجاء إلى الداخلية ، وبهذا الخوف نفسه امتنع المأمور عن الاتصال بالداخلية . والعمدة والمأمور كلاهما يرجوان من أعماق أنفسهما أن يظل أنور بك جاهلا أمر جماعة الخير بعض الوقت حتى لا يعلم الرؤساء بالخيبة التى يعانيان منها . أما ما قاله لطيف بك فهو لا يعدو تنفيذ الاتفاق الذى تم بينهما ، حين دعا منصورا فرافقه إليه كمال .

وقد كان لطيف خليقا أن يجيب أى رجاء للعمدة الذى يريد أن يصطنعه للانتخاب القادم ، إلا أن يكون هذا الرجاء حربا على قوم ضمهم هو إلى رحابه . . أى رجاء إلا هذا ! فقد كانت

حياته أغلى من الانتخـاب ، ولا يحب أن يؤلب المجـرمين على حياته .

وما كان كمال يريد إلا معرفة هذه الأمور وقد عرفها ، فقـد شغله مجيء أنور بك ، وخشى أن يقصد إليه العمدة فيضيق عليه الخناق .. وقد كان كمال يخشى أن يضيق عليه الخنـاق وهو — بعد — لم يثبت دعائمه ، ولم يرسها على العمد التى يبتغيها لها .

دارت بذهن كمال هذه الأمور وهو يستأذن العمدة ان يدخل إلى الدوار ليصيب فطوره ، وليصيب ايضا ذلك الشيء الذى ما زال يهفو إليه .. نظرة من درية .

★ ★ ★

أقبل المساء على القرية فاوى القوم جميعهم إلى البيـوت يذودون عن أنفسهم ذلك الجو القاتل الذى شاع فى القرية ، والتقت أعين الأزواج والأولاد على نور المصباح المتهـافت فأحست القلوب فى أضلاعها رجفة ، هى هزة الخوف من الغـد المجهول ، فما يعلم أحد بماذا يطلع عليهم الصباح . وهى هزة الحب اغتلى فى افئدتهم .. الحب للحياة التى يحيونها لا يريدون أن يفارقوها مهما تلاقهم بهذا العنت الذى تلاقيهم به ، والحب .. حب الـزوجات لأزواجهـن وحب الأزواج لزوجاتهم ، وحب الأبناء لوالديهم وحب الوالدين لأبنائهم ، يبلغ اقصاه فى فورة الأحداث الراعدة حواليهم . والحب .. حب الجميع لله الكبير أملهم الذى لا أمل لهم غيره ، وملاذهم الذى لا ملاذ لهم إلا هو ،

ومن خلال هذه الخيوط الناعمة القوية من الحب، ومن خلال هذه النظرات الصامتة العميقة ، يستمد القوم بعض طمأنينة تسكن إليها نفوسهم المضطربة بعض السكون .. بعض سكون يستطيع أن يصحبهم إلى نوم ، وإن يكن نوما مفزعا ينتظر النذير أو ينتظر الكارثة .

فإن مررت ثمة بالقرية فلا نيران ولا سمر ، ولا جماعات تتحلق ولا أفراد تروح أو تغدو ، إنما هم الخفراء فى جلابيبهم علقوا على أكتافهم بنادقهم لا يستعملونها ، فقد استعاضوا عن الأعيرة فى الهواء بكحة يسعلونها يسلمها خفير إلى خفير . حتى الضفادع والصراصير ، حتى الكلاب النابحة أحست بما أصاب الناس فهى فى صمت مطبق ، فإن صات أحدها لم يجد جوابا فيعود إلى صمته .. إن مررت — لا قدر الله لك أن تمر — لتشوقت إلى هذا الضجيج الذى كانت الضفادع والصراصير والكلاب تثيره فى القرية .. ولتمنيت — وأن كنت تكره أصواتها — أن تعود الضفادع إلى النقيق والصراصير إلى الصفير والكلاب إلى النباح ، ولرأيت فى أمنيتك هذه أملا ضخما ترجو أن يتحقق وإن أصاب السمع منك بما لا تحب .. نعم .. وإن ..

حتى الضياء الخافت الذى كان يتسرب من البيوت قد أقفلت دونه ألواح غليظة من ضلف النوافذ ، فهو ثمة حبيس مع الناس لا يرى إلى القرية ولا يشتهى أن يراها .

ليس فى القرية صوت وليس فى القرية نار وليس فى القرية نور ، ولكن ضياء فى السماء يأبى أن يترك القرية فى سوادها

الصامت الحزين ، فثمة قمير صبى يطل على القرية بشعاعات تغشاها ، فهى فى زرقة من الضياء . فإن مررت — لا قدر الله لك أن تمر — لأمكنك أن ترى طريقك وأن ترى أيضـــا رفيق طريقك .

فى المساء الأزرق ، وفى هذا الســكون الهاجع ، خـــرج أحمد أبو خليل متسللا متشحا بالســـواد من حظيرة بهائمه ، يسحب من خلفه جمـلين وقد حمــل على كل منهما كيسين من القطن ، وسار بهما وجهته إلى المدينة يريد أن يبلغها فى الصباح .

وفى هذا المساء نفسه كان فتحى خفير العمدة ينتظر العمدة ومعه حماره عند القطار ، تنفيذا الأوامره التى أرسلها فى قطـــار الظهيرة الذى كانوا ينتظرونه فيه ، تلك الأوامر التى تفيد أن المأمور قد أخره وأنه قادم فى آخر قطار يصل إلى محطة بلدتهم .

والذى يريد أن يخرج من القرية قاصدا إلى المدينة لابد ان أن يمر أولا بطريق زراعى تحف به الحقول من الجانبين ، وقد كانت الحقول فى تلك الآونة مغطاة بالذرة لم يزلها أصحابها عن الأرض .

والذى يريد أن يقصد من المحطة إلى القرية لابد له أن يمر بطريق تحده الصحراء من جانب ، والطرف الآخر من حقول الذرة نفسها التى تحف بطريق القرية من جانب آخر .

كان أحمد إذن مـــترجلا فى طريقـــه إلى المدينـــة ووراءه الجملان ، وكان العمدة راكبا الحمار فى طريقـــه إلى القـــرية ووراءه فتحى .

وفجأة فى بهيم الليل سمع العمدة عيـــارا ناريا ينفجر من

قريب ، فانتفض العمدة عن حمـــاره وانتفض الحمار من تحت العمدة ، وجرى فتحى إلى الذرة يختبىء بها ، وأسرع العمدة يجر الحمار مهرولا إلى أعواد الذرة يرجوها أن تحميه . ومن قريب سمع العمدة حفيف ثوب وأقـــدام تقـــترب ، ثم ما لبث صاحب الجلباب والأقـــدام أن مر قريبـــا من العمـــدة وفتحى والحمار ، وقد كتم جميعهم أنفاسهم حتى عبرهم المجهول ، وقد أجابت الذرة رجاء العمدة فحمته من الأعين . وخرج صاحب الجلباب من الذرة إلى الطريق يحمل بندقيته فى يده متهيأ لإطلاقها عند اول بادرة ، ويتلفت يمنة ويسرة فيراه العمدة من مخبئه ، ويراه فتحى ويعرفانه .. ويخترق الدفراوى الطريق إلى الصحراء ، وما هى إلا لحظات حتى تغيبه الصحراء فى جوفها ، ويصحو العمدة من ذهوله المذعور :

ـــ فتحى ؟

ـــ ن .. ن .. نع .. نع .. نعم يا حضرة العمدة .

ـــ أين بندقيتك ؟

ـــ م ... م ... معى .

ـــ وماذا تفعل بها ؟

ـــ إنها .. إنها لا تصلح .. ينطلق منها العيار مرة ، وينحبس فيها مرات .. خشيت أن أستعملها فينتبه إلينا الدفـــ .. الرجل فيقتلنا يا حضرة العمدة .

كان العمدة قد ألقى سؤاله وسار مخترقا الذرة إلى طريق القرية ساحبا وراءه الحمار ، ساعيا خلفهما فتحى يلقى باعتذاره

الطويل هذا . ولم يبال العمدة من جواب فتحى شيئا ، فهو يعلم أنه هو أيضا كان عند الواقعة لا يملك من الشجاعة ما يأمر به فتحى أن يضرب . سار العمدة يهرول فى الذرة لاهث الأنفاس حتى بلغ الطريق ، فراح ينظر حواليه فرأى عن يساره الجملين عائدين طريقهما إلى القرية يحملان القطن فلم يحفل أمرهما ، وراح يجيل النظر مرة أخرى فرأى منه عن قريب جثة ملقاة ، سارع إليها وركع عند وجه صاحبها ثم رفع رأسه إلى فتحى .

ــ استدع الناس يا فتحى ليحملوا جثة أبى خليل ، واطلب إلى عبد الهادى أن يبلغ النيابة ، وحذار يا فتحى .. حذار أن تخبر أحدا أن الدفراوى هو القاتل .. حذار وإلا قتلتك .

ــ وهل ترانى أجرؤ على القول يا حضرة العمة .. ؟ وهل ترانى أجرؤ ؟ !

★★★

بلغ الدفراوى المغارة وما إن دخلها حتى عاجله الزهار :

ــ هيه يا منصور !!

ــ تم المطلوب .

ــ سبع يا بنى والله سبع .

وقطع عليه كمال اندفاعه :

ــ اهجع يا زهار .. أترانا هازلين ؟ . هل رآك أحد يا منصور ؟

ــ لا .

ــ هل أنت متأكد ؟

ـــ كل التأكيد .

ـــ فهيا إذن إلى بيت النمرود .. هلم يا جما ... هلم يا رجال .

وخرجت جماعة الخير من مخبئها ، وقصدت إلى بيت النمرود دائرة حول القرية غير متخذة إليها الطريق الزراعى ، حتى إذا بلغوا حدود القرية من عند طريق المحطة اخترقوا الذرة إلى بيت النمرود رأسا ، وظل الدفراوى ونور والزهار فى الذرة . وخرج كمال منها إلى بيت النمرود وطرق الباب طرقة عرفها النمرود الذى كان ينتظرهم هناك ، وما لبث الباب أن فتح ودخل كمال ، ثم تسلل الثلاثة الآخرون الواحد بعد الآخر .

وأخذ كمال مكانه من الأريكة ، وسرعان ما اشتعلت النيران وأديرت الجوزة ، ولكن قليلا ما تدور فقد كان اليوم مليئا بالترقب ، ويريد كل منهم أن يهجع إلى منزله ، فما يلبث كمال أن يقول :

ـــ سأقوم للنوم .. ألا تقومون أنتم أيضا ؟

ـــ إى والله .. لقد وجب النوم ..

وانفضوا عن مجلسهم واتخذ كل منهم وجهته إلى بيته .

دخل الدفراوى منزله وهم أن يخلع ملابسه ، ولكنه يسمع خارج بيته ضجيجا عاليا فلا يحفله ، ظانا أن القوم يلغطون بحادث الليلة . ولكن الضجيج يقترب فيوشك أن يوليه اهتماما ، ويتسمع فيسمع اسمه ، فيسارع بفتح الباب يريد الهرب ولكن لات حين مهرب ، لقد كان الضجيج قد بلغ باب بيته وأحاط به الجنود وخفراء القرية .

سارت سيارة المأمور بالدفراوى تحمله إلى السجن متهما بتهمة القتل ، منكرا لهذه التهمة مبالغا فى الإنكار ، ولكن إنكاره لم يمنع العمدة أن يفرح لهذا النصر الضخم الذى أصـــابه ، فإن الحوادث التى وقعت فى تلك الفترة البغيضة من الإرهاب لابد أن تنتهى اليوم . بل إن العمدة كبير الأمل أن يعرف أيضا جماعة الخير فردا فردا ، فهو يعتمد على المأمور أن يحمل الدفراوى على الاعتراف .

وبهذا الفرح والأمل ، وفى تفكير عميق ، وقف العمدة يقيم صلاة الفجر الحاضر فقد استمر التحقيق إلى الصباح ، وانتهى العمدة من صلاته فى شرفة الدوار وانفتل إلى بيته ، فاستقبلته زوجته التى ظلت ساهرة تنتظره وتجيب أوامــره التى يرسل بها إليها .

ــ هيه .. خير يا شيخ زيدان ؟

ــ خير إن شاء الله .. انكشفت الغمة والحمد لله .

ــ الحمد لله على كل شىء .. هل اعترف منصور ؟

ــ لا لم يعترف ، ولكن كيف له أن ينجو وقد شاهدته بعينى أنا وفتحى ، وأثبتنا هذا فى محضر النيابة ؟

ــ وهل عثروا على السلاح ؟

ـــ هذه هى المشكلة .. لقد فتشنا بيته وبيت صــاحبه النمرود ولكنا لم نجد شيئا ، وأرجـــح أن الولد له صديق فى الصحراء أودع عنده البندقية .

ـــ فانتبه أنت لنفسك يا شيخ زيدان .

ـــ لقد خلصنا منهم يا شيخة .. فما أعتقد إلا هذا كان زعيمهم ، وما أظن أن تقوم لهم قائمة بعده أبدا .

ـــ ومن أدراك يا شيخ زيدان .. ؟ ! إننى لم أر فى حيــاتى عصابة كافرة مثل تلك ، فبحق درية يا شيخ وبحقى إلا ما احتطت لنفسك .

ـــ توكلى على الله يا حاجة .. توكلى على الله ، لقد ثبت كلامى فى المحضر ولن تنفعهم إصابتى فى شئ .

ـــ ومن يدرى ؟؟ . هؤلاء قوم لا يعرف أحد نواياهم !! ..

ـــ توكلى على الله .. هلم إلى النوم فإنى أحس جسمى لا يكاد يستقيم ، وأيقظنى عند الضحى لنمشى فى جنازة أحمد ، الله يرحمه .

★ ★ ★

صحا العمدة قبيل الضحى ، فوجد القوم ينتظرونه بالخارج ليباركوا له هذا النصر الذى أحرزه ، وليصــحبوه فى تشــييع الجنازة . قال الحاج على :

ـــ الحمد لله يا حضرة العمدة .. غمة وانزاحت .

ـــ الحمد لله يا حاج على ، ولو أنك كنت كثير المديح لهــذه الغمــة .

ـــ يا حضرة العمدة ؟ كنت أخشى على نفسى وعلى قوتى .. داروا سفهاءكم يا حضرة العمدة .

فصاح الشيخ رضوان فى غضب تعود أن يفتعله حتى ليبدو صادرا من صميم فؤاده :

ـــ دع الحديث جانبا يا حاجعلى ، فما أظن النبى يحض على النفاق .. كنت تستطيع أن تسكت على الأقل .

وقبل أن ينطق العمدة كان الحاج على قد شذره بنظـــرة دهشة عاجبة :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله يا شيخ رضوان .. عجيبة ..

وقبل أن يجيب الشيخ رضوان سارع العمدة قائلا :

ـــ إى والله عجيبة يا شيخ رضوان .

ـــ أى عجيبة يا حضرة العمدة .. أى عجيبة ؟

ـــ عجيبة ، لأنك كنت أكثر مديحا للجمـــاعة من الحاجعلى نفســـه .

ـــ أعوذ بالله يا حضرة العمدة .. أنا ؟ !

فقال الحاج على وهو محملق فى الشيخ لا يزال :

ـــ عجيبة !!

وقال العمدة :

ـــ نعم أنت .

ـــ أنا يا حضرة العمدة .. أنا الرجل المصلى الذى أخـــاف الله وأتقى غضبه .. أنا أمدح هؤلاء القتلة السفاكين اللصوص قاطعى الطريق .. أنا كنت أمدح فقط أنهم يقدمون للفقـــراء المعونة .. كنت أذم القتل والسرقة وأمدح الكرم ومعونة الفقراء .

ـ سبحان الله يا شيخ رضوان ، ألم تكن تدرك أن إعطاء الفقراء كان لتملقهم .. ولتجد الجماعة مبررا أمام القرية لارتكاب ما ارتكبته ؟

ـ لا والله يا حضرة العمدة ، لم أكن منتبها لهذا .

فقال الحاج على وهو محملق لا يزال :

ـ عجيبة ؟ !

وقبل أن يتكلم أحد صعد إلى الشرفة الشيخ عبد الودود منهوك القوى بادى الهزال شاحب الوجه مأخوذا ، ترك عليه الحادث آثار هلع لا يزايله ، فقام إليه العمدة :

ـ مرحبا بك يا شيخ عبد الودود .. الحمد لله على سلامتك .

ـ سلمت اليوم فقط يا حضرة العمدة .. علمت اليوم بما كان فأحسست روحى تعود إلى جسدى هونا ، فقمت إليك أبارك لك بهذا النصر .

وقدم الشيخ حسن مع ابنه فخرى ، وكان الشيخ حسن يبدو وكأنه قفز من الحياة سنين عدة ، واستقبل العمدة الشيخ حسن وابنه وفى عينيه حب لهما عميق . وما كادا يجلسان حتى طلب العمدة إلى فخرى أن ينتقل إلى جانبه وهمس فى أذنه :

ـ فخرى ، أنا أريدك فى حديث خطير قد يغير مستقبلك ، ولكن لابد لك أن تقبله .

ـ وما هو يا حضرة العمدة ؟

ـ لا .. ليس الآن .. ولكن عندما يحين الوقت ، سآتى إليك أنا فى القاهرة وأخبرك به .

ـ أمرك يا حضرة العمدة ..

ـــ ولكن لا تخبر أحدا .. لا تخبر أحـــدا على الإطلاق ، اكتم هذا الحديث حتى عن أبيك .. فإن سألك فيم كان حديثى ؟ فقل له إننى كنت أريدك أن تحضر معى عند المحامين الذين سأوكلهم ليترافعوا عن والدة أحمد أبى خليل وإخوته .

ـــ أمرك يا حضرة العمدة ، وإن كنت أنا الآخر أريدك فى شىء خطير ، ولكن ليس الآن على أية حال .

ولما رأى الشيخ حسن أن الهمس قد طـــال بين فخـــرى والعمدة كاد يدرك أن العمدة يحادث فخرى فى أمر درية ، ولكنه استبعد هذا الظن فما كان يعتقد أن العمدة يحادث الفتى دونه فى هذا الشأن . كما كان يرى أن الوقت غير مناسب ، ولكنه لم يتعمق الفكر فى هذا الشأن فقد كان يعلم أن ابنه سيخبره عن تفاصيل الحديث .. قال الشيخ حسن :

ـــ أظن أن الوقت قد حان يا شيخ زيدان .

فقال الشيخ رضوان :

ـــ نعم أظن فها هى ذى طبلة كمال تعلو مرة ثانية .

وقام الجميع إلى الجنازة يشيعونها يتقدمهم العمدة والشيخ حسن ، تعانقت أذرعهما واعتمد كل منهما على صاحبه .

★★★

أقبل المساء على قرية السلام ، وانتظر القمير بعض الحين ثم حبا إلى السماء واهنا ، يرى بعضهم وهنه من الصغر فساقاه ما زالتا غضتين ، ويرى بعض آخر وهنه من الشيخوخة ومن طول ما جاب السماوات منذ خلق الســماوات ، ويراه بعض

آخر واهنا لا يدركون لماذا ولا يفكرون . ويراه الباقون طالعا في السماء فلا يرون وهنه ، وإنما كل شأنهم منه أن يطلع فينظروا إليه أو لا ينظروا ، فما يعنيهم في شيء .

ـــ إلا أن قرية السلام لم تفكر في شيء من هذا ، فقد ذهب الرجال إلى مأتم أحمد متفرقين وعادوا جماعات ، ثم تفرقوا ثانية إلى بيوتهم فأقفلوا أبوابها على أنفسهم بالقصور الذاتي ، فمع أن الطمأنينة قد عاودتهم شيئا إلا أنهم لا يزالون يقفلون الأبواب ويحكمون الرتاج ويذودون الضياء عن القرية بألواح الضلف الغليظة التي يضعونها على نوافذهم .

وحينئذ طلبت درية إلى أمها أن تخرج لتعزي والدة أحمد أبي خليل في مصابها ، وقد كانت الأم تريد أن ترافقها ولكن سهر الأمس وكبر السن قعدا بها في ليلتها تلك ، فهي تقول لابنتها :

ـــ أتظنين أن الرجال قد انفضوا عن المأتم الآن ؟

ـــ أظن ذلك ، فهم في هذه الأيام يبكرون في النوم .

ـــ أخاف أن تذهبي وهم لا يزالون هناك فيغضب أبوك ؟

ـــ إذا رأيت الرجال لا يزالون قاعدين عدت .

ـــ حسنا فاذهبي إذن ولكن لا تتأخري . خذي معك فاطمة وعبد الهادي الخفير .

ـــ أمرك يا أم .

وخرجت درية في موكبها الصغير قاصدة بيت أحمد أبي خليل ، واخترق الموكب الظلام الأزرق والسكون المطبق الذي

تعانيه القرية ، إلى أن بلغ جرن القرية حيث اتخذ كل فلاح مكانا يضع فيه روث بهائمه فى شكل كومة ليجعل منه سمادا لأرضه ، وتتقارب هذه الأكوام حتى لا يسمح الطريق بينها لغير رجل واحد أن يمر . ولا حارس ثمة على هذه الأكوام ، فكل فلاح يعرف كومه ولا يعدو أحد منهم على الآخر .

كان على الموكب أن يخترق هذه الأكوام إلى بيت أحمد ، فتقدم عبد الهادى وتبعته درية ففاطمة . وما إن توسط هذا الطابور أكوام السماد حتى تواثب على ثلاثتهم ثلاثة شخوص ملثمين بينما وقف رابع يرقبهم ، ويضع كل من الثلاثة إحدى يديه على أفواه كل من عبد الهادى ودرية وفاطمة ، ويضعون فى جنب كل منهم مسدسا . وتتم العملية فى ومضة عين ، ثم يقول الشخص الرقيب وهو ملثم :

ـ كلمة واحدة أو صوت .. تنطلق هذه المسدسات جميعا . هيا تحركوا معنا .. سترتفع الأيدى عن أفواهكم فحذار أن يسمع لكم صوت .

ويسير الجمع اثنان يتبعان اثنين آخرين ، وفى آخر الطابور المزدوج يسير كمال .

ويخترق الموكب الطريق الزراعى المحفوف بالذرة ، ويبلغ الطريق الرئيسى الذى يتفرع إلى طريقين أحدهما إلى المدينة والآخر إلى المحطة ، فيميلون إلى طريق المحطة ، ثم ما يلبثون أن يعبروا الطريق إلى الصحراء . وما هى إلا خطوات قليلة ، حتى يبلغوا كثيبا ضخما من الرمال يدورون حوله فيطالعهم

كوخ كبير ، ويقف كمال على بابه ويقول لعبد الهادى وفاطمة :

ـــ اذهبا أنتما إلى العمدة وقولا له إن ابنته لن ترجع إليه حتى يغير أقواله التى قالها فى المحضر .. فإما أن يبرأ منصور أو تموت الابنة .

وتشهق فاطمة ، فيعود كمال إلى الحديث وقد غير اللثام صوته :

ـــ اخرسى .. اذهبى واحذرى أن يصدر عنك صوت أو كلمة حتى تبلغى العمدة . احذرى وإلا فأنت تعرفين ما يمكن أن نفعله .. هيا .

وتجر فاطمة عبد الهادى ويسيران طريقهما إلى العودة ، بينما يدخل كمال إلى الخص فيخرج منه حصانه فيركب ويضع درية أمامه ويركب الآخرون خيولهم وتركض بهم الخيل إلى المغارة .

يدخل كمال درية إلى المغارة المظلمة فيضىء مصباحا ، ويكبل درية بالحبال ويضع على فمها منديلا ، ويخر إلى إخوانه فيسأله الزهار :

ـــ هيه .. أننام جميعنا هنا ؟

ـــ هلَ جننت !! .. أما كفانا أننا لم نذهب إلى المأتم اليوم ؟ .. لابد لكم أن تظهروا فى القرية الليلة وتناموا فى بيوتكم .

فيقول الكحلة :

ـــ ومن يحرسها إذن ؟

فيقول كمال :

ـــ أنا أحرسها .. فإن أحدا لن يبحث عنى . اذهبوا أنتم



وأبقوا على المسدسات معكم حتى مساء الغـد ، وتعالَ أنت يا نور فى الصباح لتتولى حراستها .. وأحضر لنا معك بعض الطعام .

ـــ لماذا ؟ ألم تحضر وطنية طعاما ؟

ـــ لا لم أطلب إليها أن تفعل ، لأنى لم أخبرها بعملية الليلة .

ـــ وهو كذلك .. السلام عليكم .

ويمضى القوم بعد أن يودعوا المغارة خيولهم التى استخدموها لأول مرة ، والتى ملأهم الزهو باستخدامها . ولـــولا أن كمالا خشى أن تعيقهم درية فى المسير فيبطئوا ويلحق بهم أهل القرية لما استخدموا الخيل فى ليلتهم تلك ، فقد كانت معدة للعمليات خارج القرية لا داخلها .

مضى القوم ، وجلس كمال على باب المغارة يفكر فى أمره وأمر درية .. ويتيح بجلوسه لدرية أن تسترد أنفاسه اللاهثة ونفسها الجازعة . لقد طالما تمنى أن يخلو إلى درية ، ولكنه لم يتمن أن تكون الخلوة ناتجة عن اختطاف ، وقاصدة إلى تهديد ..

قام كمال فدخل المغارة ملثما ـــ لا يزال ـــ فأزال عن فم درية المنديل ، ثم ابتعد عنها قليلا واتخذ لنفسه مجلسا أمامها .. وينظر إليها كمال طويلا ثم ما تلبث أن تنحدر من عينه دمعتان احست عيناه بهما حارتين ، فهما لم تعرفا هذه الدموع منذ كان طفل لا يذكر متى دمع أو بكى . وكفكف كمال دمعه خفية ثم قال لدرية :

ـــ لا تخافى .

ـــ أنا غير خائفة .. أنا مؤمنة ، وما فى علم الله كائن .

ـــ ونعم بالله ..

وانقطع الحديث حينا ، ثم قال كمال بعد أن استجمع نفسه :

ـــ من أنا ؟

ـــ قاتل .

ـــ سامحك الله .

ـــ اطلب إليه أن يسامحك أنت .

ـــ علام ؟

ـــ ألا تعرف ؟ .. على كل ما جنيت . على النفوس التى قتلتها والقلوب التى أرعبتها ، اطلب إليه أن يسامحك ـــ على الأقل ـــ من أجل ما تفعله الآن بأبى المسكين حين يعلم أننى رهينة عند سفاك .

ـــ هذا عملى .. أقتل الفرد فى سبيل الجماعة .

ـــ أيها السفاك .. وهل الجماعة إلا أفراد !!

ـــ لكل رأيه .

ـــ بل إن كل إنسان يشكل منطقه على هواه .. حتى القاتل اللص السفاك ، حتى أنت تخلق لنفسك منطقا .

ـــ لم تجيبى .

ـــ علام ؟

ـــ من أنا ؟

ـــ لقد أجبت ، قاتل لص .

ـــ فما اسمى ؟

ـــ أيا يكون اسمك فإنه لن يستر اسمك الحقيقى .. قاتل لص .

ـــ بل إن لى اسما .. ولى معك بالذات تاريخ طويل .

ـــ معى أنا !!

ـــ نعم .. منذ أنت طفلة صغيرة وأنا صبى كبير .

ـــ فأنت من البلد ؟

ـــ منذ كنت تلعبين مع اترابك فأقف منكم بمرصد ، أناولك الكرة إن ذهبت بعيدا ، وأقيم لكم ما تشاءون أن أقيم لتلعبوا به وتلهوا .

ـــ من أنت ؟

ـــ أنا ذلك الذى كنت أكبر جماعتكم .. لا أشارككم اللعب وإنما أخدم لكم كل لعبة تقومون بها .

ـــ من ؟

ـــ أنا .

ويرفع كمال اللثام عن وجهه فتغوص درية فى أعماق صمت ذاهل حيران ، لم تقل غير كلمة واحدة : « كمال » ذاهلة مفزعة ، غير واثقة مترددة ، تنعم النظر واهمة أنها فى حلم بغيض . ويقولَ كمال :

ـــ نعم كمالٌ .

ـــ لماذا ؟ .. لماذا فعلت بنا هذا ؟ !

ـــ لم أقصد إليكم .. إنها فكرة قديمة حانَ موعدها فنفذتها .

ـــ لماذا يا كمال ؟ !

ـــ كنت ابحث عن مكان لى فى البلدة فلا أجد .. وكنت أطيلُ النظرَ إلى نفسى فى المرآة فقد كنت أحس أن أحـدا لا يرانى مطلقا ، فكنتَ أعزّى نفسى بأن أرى أنا نفسى .. كنتَ لا شىء

فى قريتكم وأردت أن أصبح شيئا . كنت قطعة من الهمل لا تلقى حتى الإهمال ، فقد كنت أقل من أن يهملنى القوم .. أعددت الخطة فأصبحت على ما ترين .

ــ ويحك !! لقد كنت كما وصفت ، وأقسم لقد صرت إلى شر مما كنت .. ويلك ! لقد أعددت الخطة لتنحدر إلى حضيض كنت بالنسبة إليه فى القمة .. ماذا فعلت بنفسك يا كمال ؟

ــ صرت سيدا .

ــ على عصابة .

ــ أصبحت آمرا فيؤتمر بأمرى .

ــ لأن بيدك سلاحا .

ــ أصبحت غنيا .

ــ لأنك لص .

ــ أحس نفسى قويا .

ــ لقد كنت أقوى .

ــ وفيم كانت قوتى ؟

ــ فى هدوء ضميركَ .

ــ لم يكن لى ضمير .. وليس لى اليوم .. انا لم اعرفه يوما فآسى عليه .

ــ أيها المسكين تحاول أن تهرب من الأيام .. لن تستطيع .

ــ لقد استطعت .

ــ بل لن تستطيع .

ــ سترين .

ــ لا حول ولا قوة إلا بالله .

ويرتجف كمال وكأنه يسمع الحوقلة لأول مرة ، ثم يرين عليهما صمت طويل تقطعه درية :

ـــ ولماذا اختطفتنى .. أمن أجل منصور ؟

ويتردد كمال قبل أن يقول :

ـــ نعم .

ـــ ولماذا كشفت لى عن نفسك ؟

ـــ لأنى أعلم أنك لن تشى بى ، ولأنى لا أنوى أن أضايق العمدة بعد اليوم ، وسأقول للجماعة إنك عرفتنى فأقسمت ألا تبوحى بسرى إلا إذا أسأت إلى أبيك ، وبهذا أبعدهم عنه .

ـــ إذن فأنت لا تنوى أن تتوب ؟ !

ـــ أتوب عن ماذا .. أنا لن أضايق أباك فقط ومن أجلك .. لقد أصررت على أن آخذ منه الإتارة حتى أخيف الآخرين ، أما بعد اليوم فلن يصيبه منى شر أبدا ، وعلى كل حال فأنت قد عرفتنى ولم تعرفى من معى ، وقد يصيبون أباك بشر إن أنت أفشيت سرى .

ـــ فلماذا لم ترسل إلى أبى تهدده بأن تقتله أو تقتلنى ، أو بأن تحرق زراعته أو بيته بدلا من أختطافى ؟ !

ـــ الوقت يخيفنى .. أخاف ألا يستطيع منصور احتمال السجن فيشى بنا جميعا .

ـــ آه !

ويعود الاثنان إلى الصمت ثانية ، ثم يقول كمال :

ـــ هذا ما أقنعت به زملائى ، أما الحقيقة .. الحقيقة أننى رغبت فى أن أجلس منك هذه الجلسة .. وأن أقول لك ..

ـــ حذار .

ـــ أتحرمينني حتى من قولها ؟ !

ـــ وأى فائدة تجنيها من قولها ؟

ـــ أنت هنا معى .. ونحن وحدنا .. إن لم اقلها لك الآن فمتى ؟ ..

ـــ لن تقولها أبدا .. ولن أسمعها .. لن أسمعها حتى وإن قلتها .

ويقف كمال وهو يقول يائسا مستخذيا :

ـــ أنت محقة .. أنت محقة يا ستى درية .. تصبحين بخير .

ويخرج كمال إلى باب المغارة فيجلس إلى الأرض ، وقد التف بعباءته وألقى بنظره إلى الأفق البعيد .

★★★

ومع الفجر يأتى نور ليأخذ مكان كمال ، فيمضى كمال إلى بيته فيجد وطنية تنتظره ..

ـــ أين كنت ؟

ـــ وما شأنك ؟

ـــ اختطفت درية ..

ـــ ومن أدراك ؟

ـــ عرفت .

ـــ وماذا تريدينني أن أفعل ؟ . أسكت حتى يذكر الدفراوى أسماءنا ونذهب فى الحديد .

ـــ أمن أجل هذا اختطفتها ؟

ـــ هل جننت ؟ .. إن لم يكن من أجل هذا فلماذا ؟

— حب قديم كان يائسا ، ولعل أملا يداعبك فيه اليوم ؟

— يا شيخة .. وحياة والدك .. أهذا وقته ؟ !

— فمتى الوقت ؟ .. طبعا وأين أنا الآن وقد قضيت ليلة معها في المغارة .

— اسمعي يا وطنية .. أنا يا بنتي — مهما أفعل — لن أزيد عن كمال الذي عرفته .. كمال الذي كان حتى أمس تأمر خادمتها أن تقدم له فضلة طعام الخدم .. كمال الذي ظل طول عمره خادما عندهم ، أو مستجديا على بابهم . أفهمت ؟ .. أفهمت ؟

وفهمت وطنية تماما .. فهمت أن كمالا عرف هذا جميعه من ليلة الأمس ، وفهمت أن كمالا حين واجه درية منفردين في المغارة هو السيد الآمر وهي المطيعة المنفذة ، لم يستطع كمال إلا أن يجد نفسه كمالا المستجدى وإلا أن يجد درية السيدة الآمرة .. لم يستطع كمال وهو في مأمن من الوحدة ، وفي عزوة من السلاح ، إلا أن يكون كمالا الطبال في القرية أمام درية بنت العمدة . فهمت وطنية هذا فقد كانت تجيد الفهم .. فهي تقول لكمال :

— وماذا تنوي أن تفعل بها ؟

— والله لا أدري .. الأمر الآن بيد العمدة .

— أتقتلها ؟ !

وهب كمال جازعا :

— أقتلها !!

— فماذا تنوي أن تفعل ؟

— لا أدري .

- ١٧ -

تلقى العمدة النبأ من فاطمة وعبد الهادى ، فألقى به فى بحران من الاضطراب والذهول والحيرة والجزع والثورة .. ابنته فى يد العصابة وأقواله فى المحضر . لا سبيل له إلى ابنته ولا سبيل له إلى المحضر .. ماذا يفعل ؟ .. وتصيح به زوجته :

— أسرع .. أسرع إلى المركز وغير أقوالك .

ولا يجيب العمدة وقد اختلط صوت زوجته فى ذهنه بخوالج قلبه ، فما يدرى أهو صوتها أم صوت من أعماقه ؟ فما يلبث أن يغمغم وكأنما يحادث نفسه :

— ومن يصدقنى ؟ .. لقد ثبتت أقوالى وانتهى الأمر ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

وتعود الزوجة إلى الإلحاح ، ويظل هو ساهما مطرقا يقلب الأمر على كل وجه له . إنه لو قبل أن يطيع زوجته ويجعل من نفسه كاذبا متعلقا بخيط واهن من الأمل ، فمن لفتحى الخفير ، ومن لهذه القرية التى عرفت جميعها منه ومن فتحى انهما رأيا منصورا وتعرفاه ، ومن لهذه الأقوام التى جاءت تهنئه فى الصباح ؟ من لدرية الآن فى مكانها مع السفاكين ؟

إنا لله وإنا إليه راجعون . طريق واحد الذى أمامه .. طريق واحد ليس غيره .

وظل العمدة إلى الصباح يهذى صامتا وزوجته إلى جانبه تهذى فى ضجيج .. حائر كلاهما لا يدرى من أمر نفسه شيئا .. لا يتكلم العمدة — إن تكلم — إلا بقول واحد : طريق واحد ليس لى غيره .

ويطلع الفجر فيصليه العمدة ، فيثوب إلى نفسه شىء من ثبات يكفيه ليطلع إلى الناس وليذهب إلى هذا الطريق الذى لا يعرف غيره .

قصد العمدة إلى لطيف بك .. فقد كان يعلم أنه يحتاج إليه اليوم لأن الانتخاب أصبح على الأبواب .. وقد كان يعلم أنه لن يقيله من تلك الكارثة النازلة به إلا لطيف بك . يقصد إليه رغم أنه لم يكن مواليا له فى الانتخابات وإن يكن لطيف قد أعفاه مما يوقعه بمن ناصبوه العداء فى الانتخاب ، فما كان ذلك منه إلا عن أمل فى المستقبل ، وعن ثقة أن هذا العمدة بالذات وهو فى جوار بلدته لابد أن يلجأ إليه فى يوم . وكان لطيف قد أزمع فى نفسه أن يحميه إذا لجأ إليه ، فقد كانت بلدة السلام بلدة يخطب ودها عند الانتخاب ..

بلغ العمدة دار لطيف بك فى باكر الصباح فوجده يقظان ..

— وقعت من السماء فتلقنى .

— أتلقاك بروحى يا حضرة العمدة .. خير .

— بنتى .. بنتى الوحيدة .. اختطفتها العصابة ، وأرسلت

تهددنى بقتلها إن أنا لم أبلغ النيابة أن ما ذكرته عن الدفراوى كان كذبا ، وانني لم أره .

وفكر لطيف هنيهة ثم قال للعمدة :

ـــ اذهب أنت إلى البلد وغدا ستكون ابنتك عندك ، كنت مسافرا الآن ولكننى سأؤجل سفرى للمساء حتى أنهى هــذه المسألة .

وراح العمدة يدعو للطيف بك ، وخرج من عنده ليس فى نفسه أمل إلا هذا الذى ألقاه إليه ملجؤه الأخير فى ثقة واطمئنان .

وما إن خرج العمدة حتى نادى لطيف أحد رجاله وقال له :

ـــ عند المغرب تذهب إلى بيت النمرود وتقول له : إن البكَ يريد كمالا أن يأتى إليه الليلة .. قبل الساعة الثامنة مساء ، لأنى مسافر بعد ذلكَ لأحضر قضية الغد فى مصر .

ـــ حاضر .

★ ★ ★

هم كمال بالخروج من منزله قاصــدا إلى المغــارة ، وإذا بالنمرود والزهار يدخلان ليبلغاه أن البك يطلبه .

ـــ لابد أنه يريدنا من أجل درية .

ـــ نعم لابد .

ـــ هلم لنراه .

ـــ أنذهب جميعنا ؟

ـــ نعم .. ثم نعود إلى المغارة لنأخذ مكان نور ، وحذار أن

يتكلم أحد منكم أمام لطيف : دعوا الكلام لى وحدى فقد أصبح بالغ الخطورة .

ويمضى جميعهم إلى البك فيجدونه منفــردا فى حجــرته ، ويستقبلهم مرحبا :

ــ أهلا أبا كمال .. أهلا بالرجال .. كنت مسافرا الآن فانتظرت حتى تأتوا .

ويجيب كمال :

ــ أهلا بك يا سعادة البك .. أطال الله عمرك وأبقاك .

ــ ماذا فعلت من أجل منصور .. ؟ أريد أن أوكل عنه أحسن المحامين .

ــ والله يا سعادة البك شهادة العمدة سيئة للغاية ، وأخشى ألا يستطيع المحامى أن يفعل شيئا .

ــ إذن فصحيح ما سمعته عن خطف بنت العمدة ؟

ــ وماذا نفعل يا سعادة البــك .. ؟ منصــور أخونا ومن لا يحمى أخاه فليس رجلا .

ــ ولكن العمدة رجل مسكين .

ــ أصابه سكين . وماله لم يكن مسكينا فى الانتخابات وأمام النيابة .

ــ على كل حال يا أبا كمال أنت رجل ، ونعم الرجل .

ــ أبقاك الله يا بك ، وأطال عمرك .

ــ الانتخابات قادمة قريبا ، وأنا أريدك أن تساعدنى فيهــا .

ــ تحت أمرك جميعنا يا بك .

ــ لن أطلب منك إلا مسألة بسيطة .

ـــ مر .

ـــ بلدة السلام .

ـــ نعطى الأوامر يا بك أن تنتخبك جميعها .

ـــ لا .. هذا غير ممكن .. فإننا لن نستطيع أن نهدد بلدة بأجمعها فى الانتخابات . وخاصة أنتم لم تكشفوا عن أنفسكم فى القرية .. وقد جعلتم فكرتكم أمام القرية أن تأخذوا من الأغنياء لتعطوا الفقراء ، فما شأن هذا بالانتخابات ؟

ـــ فماذا نفعل .. ؟ نحن خدامك .

ـــ الطريقة المثلى أن نسترضى العمدة .

ـــ وكيف ؟ !

ـــ نرد له ابنته عن طريقى .

ـــ ومنصور ؟

ـــ أكبر محامى فى مصر سيترافع عنه

ـــ يا بك شهادة العمدة لا تنفع معها مرافعة .

ـــ هذا شأن المحامين .

ـــ ومن يدرى ماذا سيحدث لنا من هنا حتى يوم المحاكمة ؟

ـــ ماذا سيحدث ؟

ـــ ألا يجوز أن يشتد الضغط على منصور فيذكر أسماءنا ؟

ـــ منصور رجل ، ولا يمكن أن يسىء لإخوانه .

ـــ يا بك السجن صعب لا يرحم .

ـــ أنا واثق من منصور .

ـــ يا بك لا نستطيع .

ـــ أتخالفنى ؟

— العفو يا بك ؟ ولكنها مسألة حياة أو موت لنا جميعا .

— أنسيت أن العمدة طلب إلىّ أن أعطيه رجالا من رجالى ليحاربكم فرفضت .. رفضت له طلبا يهم البلدة كلها ، أما طلبه الخاص بابنته فإنى أرجو أن تمكننى من الوفاء به .. إنه لجأ إلىّ ولا يرضيكَ أن أخيب لاجئا إلىّ .

— حياتنا يا سعادة .. حياتى وحياة إخوانى هؤلاء .

— على كلٍ حال هذا شأنكَ ، ولكن اعتبر صداقتنا منتهية إن أنت لم تصنع لى هذا المعروفَ الصغير .

— يا بكَ نحن خدامك ، لا نخرج عندكَ أبدا .. إلا فى هذه المسلة .

— أنتم أحرار .. ولكلٍ منا أن يفعلَ ما بدا له .

— نحن خدامكَ يا بكَ ، نستأذن .

— مع السلامة .

ويقوم كمال فيقوم النمرود والزهار ، ويخرجون بعد أن يلقوا السلام فى أدب جم ، وفى جمود يعرفه لطيفَ منذ تعود مصاحبة أمثالهم .

وما إن يبتعد ثلاثتهم عن دار لطيفَ حتى يدعو لطيفَ إليه سليمان النطل كبير رجاله بعد موت الفرماوى ، فيقول له :

— تذهب أنت وعباس وفهمى الليلة إلى قرية السلام وتأخذون إليها الطريق الذى يدور حول بلدة الفرايحة .. اركبوا السيارة الجيب واخفوها قبل بلدة السلام ، وانتظروا الثلاثة الذين خرجوا الآن من عندى .. اقتلوهم الثلاثة الليلة .. فإن طلع عليهم الصباح وهم أحياء فلا ترونى وجوهكم ، لأنهم

إن عاشوا فسيقتلونني .. اتفهم ؟ وحذار أن تسيروا وراءهم في الطريق التي ذهبوا منها فتقتلوهم في حدود بلدنا .. انتظروهم عند بلدهم واقتلوهم .. انا مسافر الآن إلى مصر .. أقرأ في جرائد الصباح عن مقتل الثلاثة .. أتفهم .. ؟؟

وهل يفهم سليمان إلا هذا !!

★★★

خلا كمال والزهار والنمرود بالطريق ، وكانوا يسـيرون في طريق يحفه من جانب مصرف جاف ليس في جوفه إلا أوشال ماء وكثير طين ، ومن الجانب الآخر حقول لطيف وقد رفعت عنها الذرة ، وذهب كمال فنظر في المصرف خشية أن يكون فيه أحـد جالسا ، ونفض المكان جميعه بعينه ثم قال لرفيقيه :

ــ ميلا بنا نجلس في جرف هذا المصرف لأحـدثكم في أمر خطير .

وجلس ثلاثتهم على جرف المصرف وقد ألقى رفيقا كمال إليه بآذانهما المصغية .

ــ لقد عملت منذ أول يوم تكونت فيه الجماعة على أن اكسب ود لطيف ، فهو لا يعلم بأمر جماعة مثلنا تتكون قريبا منه إلا حاول أن يضمها إليه أو يقضي عليها .

فقال النمرود :

ــ نعم .. هذا صحيح .

فقال كمال :

ـــ أما هذا الذى طلب إلينا أن نعمله الليلة فهو الفناء الأكيد لنا جميعا .. فلولا أن منصورا انتظر فى السجن حتى المحاكمة لأفشى سرنا ، وخاصة إذا عرف أننا اختطفنا بنت العمدة ورجعناها دون أن يغير العمدة شهادته .

فقال الزهار :

ـــ نعم .. أنت محق .. ولو كنت طاوعته لقلنا نحن لا .

فقال كمال :

ـــ فاعلموا إذن أننا إذا لم نقتل لطيفا فإنه سيقتلنا لا محالة .. فأنتم تعلمون أن أمثالنا فى هذه الناحية إما أن يكونوا أصدقاءه أو يكونوا فى القبور .

فجزع النمرود قائلا :

ـــ نقتل لطيفا ؟

وقال كمال فى ثبات :

ـــ وأى فرق بين لطيف وصلاح وأحمد ؟ !! الرصاصة التى قتلت صلاحا أو أحمد تستطيع أن تقتل لطيفا . إنه الوحيد الذى يعرف أشخاصنا ، وقد تركناه غاضبا فإن لم نقتله فمصيرنا إلى القتل على يديه أو القتل على يدى الحكومة التى سيشى بنا عندها .

فقال النمرود :

ـــ ولكن الدفراوى هو الذى قتل صلاحا وأحمد ، ومن لنا الآن بالدفراوى ؟

فقال كمال :

ــ معنا من هو أمهر من الدفراوى .

وفهم الزهار أنه يقصد إليه ، وخيل للنمرود أنه المقصود . وتذكر فى تلك الآونة هذه الإشاعة التى كان قد أطلقها من أنه قتل زوجته الهاربة .

ويسأل النمرود فى تردد :

ــ من .. ؟ من تقصد ؟

ويكون الزهار سارحا فى هذا الأمر الذى يوشك أن يلقى إليه .. فهو لم يقتل قبل اليوم وإن كان قد تمنى أن تتاح له الفرصة .. نعم إنه أمهر فى إصابة الهدف من الدفراوى ، ولكن الدفراوى مرن على قتل الناس ، أما هو ..

ويسمع الزهار كمالا وهو يقول فى صوت ملىء بالثقة :

ــ الزهار يا أخى .. الزهار الذى تعلم إصابة الهدف فى العسكرية . ومعنا مسدسات لا تخيب أبدا .

ويقول النمرود :

ــ ما رأيك يا زهار ؟ !

ويقول الزهار فى وجمة وتفكير :

ــ أمركم .. كما ترون .

ويقول كمال :

ــ نستلقى هنا على بطوننا ، فإذا جاءت سيارة لطيف فعليك يا زهار أن تصوب إلى الزجاج الخلفى للسيارة ، فأمامه تماما

سيكون رأس لطيف فهو يجلس فى الوسط . أما أنت وأنا يا نمرود فسنضرب فى جوانب السيارة لنقتل من معه .. وسنكون نحن مختفين بينما سيكونون جميعهم ظاهرين لنا ..

— أمرك .

وما هى إلا دقائق حتى ظهر نور السيارة قادما من بعيد ، فينام ثلاثتهم على بطونهم وقد أخفـاهم جـرف المصرف عن نور السيارة .. وعبرتهم السيارة ولكن لم تكد حتى انطلق مسدس الزهار فأصاب الزجاج حيث أراد كمال ، وانطلق مسدسا كمال والنمرود فأصاب كمال جانب السيارة من أعلى وأصاب النمرود عجلة السيارة فنامت .

وحاول السائق أن يزيد سرعة السيارة ولكن السيارة قفزت منه قفزة ثم توقف محركها ، ففتحت أبواب السـيارة جميعـا ونزل منها أربعة أنفار .. أما السائق ومن كان خلفه فقد نزلا إلى ناحية الحقل فتسترا بالسيارة وظلا يتدحرجان نائمين حتى بلغا الحقل فغاصا فى جدول من الماء يفصل بين الحقل والطريق . أما من كان إلى جانب السائق ومن كان خلفه فقد تدحرجا من السيارة إلى ناحية الكمين ، وحاولا أن يدخلا تحت السيارة فلم تتسع لهما فتدحرجا فى سرعة مجنونة إلى جرف المصرف ، وراح كمال يطلق عليهما الرصاص وهما فى طريقهما إلى المصرف فلم يصبهما ، بينما راح النمرود والزهار يصوبان نحو السيارة حيث أمرهما كمال أن يصوبا ، وقد أصبحت أيديهما الضاربة منفصلة

كل الانفصال عن عقليهما ، فكل ما يدريان من أمر نفسيهما أنهما أمرا أن يضربا مواضع معينة من السيارة فهما يصوبان إلى حيث أمرا بغير تفكير ، وفى إصرار ذاهل مجنون .

أصبح رجلا لطيف فى الجرف مع الكمين ، فصوب إليهما كمال مسدسه ، ولكن الاضطراب كان قد أخذ يسيطر عليه ، وصوب الرجلان بندقيتهما اللتين كانتا معلقتين على كتفيهما إلى الكمين ، وما هى إلا طلقات قلائل حتى كان الكمين كله فى الطين قتيلا .. كمال والزهار والنمرود .

— ١٨ —

اشرق الصباح على قرية السلام ، وتهيأ العمدة يريد الذهاب إلى لطيف فإذا بالأنباء تأتيه .. لقد أصيب لطيف ومات الزهار والنمرود .. وكمال !! كمال الطبال ! ؟ نعم كمال الطبال !!

إذن فتلك هى العصابة .. فأين ابنتى ؟ .. لم يكن الأمر محتاجا لكبير ذكاء . لم يبق من منتدى بيت النمرود إلا نور .. يقصدون إلى بيته فيجدونه خاليا ، فيهمون أن يتركوه فإذا نور قادم ليبحث عن رفاقه الذين أخلفوا معه موعدهم وتركوه جائعا هو وحبيسته ، ويراه القوم قادما من وراء القرية من خلال أعواد الذرة فيمسكون به .. ويتداعى الرجل ، وتعود درية إلى بيت أبيها .

لم يكن فخرى قد ترك القرية منذ قدم إليها فقد شغلته الحوادث أن يتركها ، وقد آن له الأوان أن يعود إلى دراسته ، ولكن عليه رسالة لابد أن يبلغها العمدة قبل أن يبرح القرية . هى رسالة أجمع عليها المثقفون فى القرية ولم يجدوا غير فخرى ليؤديها عنهم .. هى أمله وأملهم .. وما كان ليمضى عن القرية قبل أن يحقق أمله وأمل إخوانه .

ذهب فخرى إلى العمدة فوجد الدوار مزدحما يغص بالمهنئين بعودة درية ، وبعودة السلام إلى قرية السلام .

ويميل فخرى إلى أذن أبيه :

— أبى هلا استأذنت لنا العمدة أن نخلو إليه بضع لحظات ؟

ويقول الشيخ حسن فى ابتسامة تكاد تشرق ، لولا ما فى القلب من حرقة على موت ابنه الأكبر :

— نعم يا ابنى .. أظن الوقت مناسبا .

— مناسب تماما يا أبى .. افعل لا عدمتك

ويميل الشيخ حسن على أذن العمدة فيقوم ويقوم من ورائه فخرى والشيخ حسن ، ويفهم إخوان فخرى ما بسبيله أن يقال فى هذه الخلوة ، ويحاول آخرون أن يخلقوا فى أذهانهم أسبابا أخرى ، ويحسد كل منهم نفسه على ذكائه المتوقد واستنتاجه الصائب .

وفى الغرفة التى شهدت رفض العمدة لطلب الشيخ حسن يقول العمدة بعد أن استقر بهم المجلس :

ـــ نعم يا فخرى .. هى لك .. هى لك يا ابنى دون أن تطلب .

ولكن فخرى يقول كلاما آخر يذهل له أبوه ، فما كان هذا ما توقعه ، ويذهل له العمدة أيضا .. يقول فخرى :

ـــ أبقاك الله وأبقاها لك .. يا حضرة العمدة ، ولكن ليس هذا ما أردتك فيه .

ـــ ففيم إذن يا ابنى ؟

ـــ لقد خرجت القرية من غمرة قاتلة فقدنا فيها أرواحا عزيزة علينا ، وفقدنا فيها كرامة هى أغلى عندنا من الأرواح ، وفقدنا أموالا هى أهون ما فقدنا .. يا حضرة العمدة أنت وحدك المسئول عن كل هذا .. نريد منك نحن أهل قرية السلام أن تقسم يمينا على المصحف أمام الله ، أن يكون الحق شأنك منذ اليوم ، فلا ظلم ، ولا ميل ، ولا رشوة ..

سمع العمدة هذا الكلام فارتسمت على وجهه ابتسامة حلوة ، وصاح الشيخ حسن :

ـــ اخرس يا ولد .. أمثل هذا يقا ...

فقاطعه العمدة فى لطف :

ـــ نعم يا شيخ حسن ، بل لا يقال إلا هذا .. اسمع يا فخرى .. بماذا همست فى أذنك آخر يوم كنت فيه هنا ؟

فتلجلج فخرى بعض الشى ، فقال العمدة :

ـــ قل ...

فقال فخرى :

ـ قلت لى إنك تريدنى فى أمر جليل قد يغير حياتى جميعها .

فازداد ذهول الشيخ حسن ، وقال العمدة :

ـ هذا ما أردتك فيه يا ابنى ..

ـ ماذا ؟

ـ أنا لن أقسم على شىء يا فخرى ، ولن أكون العمدة بعد اليوم أبدا .. أنا مسافر إلى مصر ، وسأجعل الحاج إبراهيم الحسينى نائب عمدة بدلا منى حتى يتولى الأمر العمدة الذى اخترته والذى سيحكم البلدة بما يرضى الله فيقيم فيها العدل ، ويمنع عنها الكارثة ويهيىء لها الخير .. سيكون الحاج إبراهيم نائبا عن العمدة الجديد الذى اخترته ، حتى يتم العمدة تعليمه فقد اخترته من ذوى التعليم العالى ..

فقال فخرى وهو لا يصدق ما يسمع ، يكاد يعرف من يعنيه العمدة ولكن لا يستطيع الوثوق :

ـ من .. من ذلك العمدة ؟

ـ أنت .. أنت .. يا فخرى .

« تمت »

رقم الإيداع ٣٨٤٦

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٢٠٠ قرش